مذكرات سجين

الدكتور عمر أنور الزبداني

(1400هـ-1412هـ)

(1980م-1991م)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن﴾

(يوسف: ١٠٠)

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وحبيب رب العالمين محمد خير الخلق كلهم، ورضي الله عن الصحابة أجمعين، ورحم الله التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، آمين.

وبعد:

بعد تردد غير قليل، وإقبال وإدبار، واستخارة الله سبحانه[1]، عقدت العزم على كتابة هذه المذكرات، استجابة لرأي عدد من الأخوة والمقربين، وبدأت بالكتابة فكان ما تجده مسطوراً في صفحات هذا الكتاب.

هذا الكتاب ليس إلا مجرد مذكرات سجين، أمضى ما يقرب من اثني عشر عاماً في سجون دكتاتور القرن العشرين الهالك حافظ الأسد، أكتبها بقصد الذكرى والاعتبار أولاً، ولتبقى في ذاكرة الأجيال كشاهد على مرحلة من تاريخ بلاد الشام ثانياً.

أما تاريخ هذه المذكرات فيبدأ من مساء يوم الأحد الثالث عشر من شهر جمادى الأولى سنة أربعمائة وألف للهجرة، الموافق الثلاثين من شهر آذار/مارس سنة ثمانين وتسعمائة وألف للميلاد، وينتهي مساء يوم السبت السابع من شهر جمادى الآخرة سنة اثنتي عشرة وأربعمائة للهجرة النبوية الشريفة، الموافق الرابع عشر من شهر كانون أول سنة إحدى وتسعين وتسعمائة وألف للميلاد. أما أحداثها فقد جرت في سجون ثلاثة: أولها: سجن الشيخ حسن الواقع في منطقة السوقية بدمشق قرب مقبرة باب الصغير. ثانيها: سجن القلعة الواقع في قلعة دمشق وسط سوق الحميدية غير بعيد عن المسجد الأموي. ثالثها: سجن عدرا المركزي الواقع في مدينة عدرا، التي تبعد عن دمشق نحو عشرين كيلومتراً.

هذا، وقد سردت أحداث هذه الذكريات سرداً زمنياً ابتداء بيوم الاعتقال وانتهاء بيوم الإفراج، وقد استبقت أحداث الاعتقال بنبذة تاريخية قصيرة عن حياتي، كما أتبعت تاريخ الإفراج بنبذة يسيرة عن أهم الأحداث التي قمت بها بعد أن منَّ الله علي بالفرج، فله الحمد سبحانه بداية ونهاية، وله الشكر جل شأنه أولاً وآخراً.

---

[1] استخرت الله بقصد الإقدام على تسطير هذه المذكرات في بيت الله الحرام، حيث كنت أقوم بأداء نسك العمرة، وذلك يوم الجمعة الثالث من شهر رجب سنة ١٤٣٨هـ الموافق ٢٠١٧/٠٣/٣١م في حدود التاسعة صباحاً.

نبذة ذاتية

كُتب لي أن أري النور في يوم السبت الخامس من شهر شعبان سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة وألف للهجرة، الموافق الرابع عشر من شهر شباط/فبراير سنة تسع وخمسين وتسع مائة وألف ميلادية في منطقة القزازين وسط العاصمة دمشق، حيث كان أبوايَّ يقيمان مع جدتي أمِّ أبي في تلك الدار، ثم بعد عام أو يزيد انتقل والدايَّ إلى بيت في حي داوراغا التابع لمنطقة سوق ساروجا ضمن دمشق القديمة.

ثم انتقل بنا والدي للسكن في منطقة الغوطة الشرقية، وتحديداً في منطقة تدعى الكبَّاس، وهي منطقة كانت يغلب عليها الطابع الزراعي، وكان ذلك في حدود سنة أربع وستين وتسع مائة وألف ميلادية، وفي هذه المنطقة تلقيت التعليم الابتدائي وبها ترعرعت، وأقمنا في هذه المنطقة إلى منتصف سنة ثلاث وسبعين وتسع مائة وألف ميلادية، حيث انتقلنا إلى منطقة البرامكة قريباً من جامعة دمشق، وتحديداً مقابل كلية الهندسة المدنية.

في تلك الأثناء كنت قد دخلت مرحلة المراهقة، ودخلت أيضاً المرحلة الإعدادية، وكان تحصيلي الدراسي متوسطاً، وكانت كرة القدم تجذبني وتأخذ الكثير من وقتي، وبعد أن نجحت في المرحلة الإعدادية بدرجة متوسطة، ارتأى والدي أن أنخرط في العمل، وأترك الدراسة؛ كي أكون عوناً له، وبالفعل تركت المدرسة، وهيأ لي فرصة عمل في شركة الطيران العربية السورية –كما كانت تسمى– وكان مجال العمل في مهنة الخراطة والتسوية، وهي مهنة والدي الرئيسة، وكان والدي –رحمه الله– يومئذ رئيساً لورشة الخراطة في شركة الطيران العربية السورية، وقد استفدت من تلك الفترة في تعلم حرفة الخراطة، واستفدت أيضاً من الناحية المادية؛ حيث كنت أتقاضى راتباً قدره –حوالي ٦٠٠ ليرة سورية– فكنت أدفع لوالدي نصف راتبي تقريباً، وأصرف على نفسي النصف الباقي. والتزمت في تلك الفترة في دورات تعليمية من أجل التقدم لنيل الشهادة الثانوية الحرة، إضافة إلى التحاقي بفريق قوى الأمن الداخلي لفئة الشباب لكرة القدم، وكان قد سُمح لممارسي الرياضة في مكان العمل بممارسة رياضة كرة القدم لمدة ساعة يوميًّا في الصباح.

بقيتُ في عملي في شركة الطيران السورية إلى منتصف سنة تسع وسبعين وتسع مائة وألف ميلادية تقريباً، حيث أُصبت في تلك السنة بمرض التيفوئيد، وعانيت منه فترة إلى أن كتب الله لي الشفاء، وكنت في تلك الفترة قد انقطعت عن التمرين ضمن فريق قوى الأمن الداخلي بسبب المرض الذي ألمَّ بي، وكان يتعين عليَّ في تلك السنة أن أستلم دفتر الخدمة الإلزامية، وكنت قد حصلت على فترة تأجيل لمدة عام بسبب وضعي الصحي، وفي تلك الأثناء جاءني صديق، كان يجمعني وإياه فريق قوي الأمن الداخلي، كان المدرب أحمد العقاد أرسله إلي من أجل أن يخبرني أنه ينبغي علي الالتحاق بالفريق من أجل قضاء الخدمة الإلزامية في صفوف فريق قوى الأمن الداخلي، وكانت تلك فرصة يدفع الناس عليها الكثير من المال من

أجل الحصول عليها، وبالفعل ذهبت إلى شعبة التجنيد وسحبت تأجيلي، وسافرت بصحبة أخي عزت – رحمه الله– إلى مدينة حلب، وتحديداً إلى ثكنة إبراهيم هنانو من أجل الحصول على الرقم العسكري، وتم ذلك بالفعل، وأصبحت بذلك تابعاً لمدرسة الشرطة، ثم طُلب مني أن الالتحاق بدورة الخدمة الإلزامية – وتسمى دورة الأغرار– واستمرت تلك الدورة لمدة أسبوعين، تدربت فيها على حمل البندقية، وعُوقبت خلال هذه الدورة مرة؛ لأنني لم أحلق شعر رأسي على الصفر. كما تعرضت أيضاً خلال تلك الفترة لبعض العقوبات التي يُنزلها الضباط بالجنود الأغرار جراء مخلفاتهم لضوابط الخدمة الإلزامية.

بعد مضي أسبوعين أو يزيد من الالتحاق بتلك الدورة، طُلِب مني الالتحاق بالتدريب ضمن فريق قوى الأمن الداخلي لكرة القدم الفئة (ب)، وأصبح حضوري التمرين من ذلك الحين إلزاميًّا، بعد أن كان شبه اختياري؛ من جهة أنني أقضي الخدمة الإلزامية وبقيت على تلك الحالة إلى أن كان ما لأجله وَضَعت هذه المذكرات.

ما قبل السجن

هذا ما كان من أمري قبل دخول السجن: عَمَلٌ، ورياضة، ومحاولة لمتابعة الدراسة، ومرض، والتحاق بالخدمة الإلزامية. ومما يذكر في تلك الفترة أنني كنت أحاول قراءة بعض الصحف، وبعض الكتب الإسلامية، وأذكر أنه من بين الكتب التي وقعت تحت يدي كتاب "العدالة الاجتماعية في الإسلام" لشهيد الإسلام سيد قطب رحمه الله، وكتاب "المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين" للمفكر الجزائري مالك بن نبي رحمه الله، وبعض كُتب الأستاذ عبد الودود يوسف رحمه الله، وحدث في تلك الأثناء أن وقعت أحداث مدرسة المدفعية في حلب، وبدأ اسم الإخوان المسلمين يظهر في الصحف المحلية، ووسائل الأعلام الأخرى، وبدأت الحملة الأسدية الشرسة على جماعة الإخوان المسلمين، بل على الإسلام والمسلمين.

يوم الاعتقال

قبيل غروب شمس يوم الأحد الثالث عشر من شهر جمادى الأولى سنة أربعمائة وألف للهجرة، الموافق الثلاثين من شهر آذار/مارس سنة ثمانين وتسعمائة وألف للميلاد، وكنت يومها عائداً من تمرين كرة القدم ضمن فريق قوى الأمن الداخلي (ب) فنمت بعد العصر، واستيقظت قبيل المغرب وقبيل وقوع ما وقع بقليل، وكان والدي رحمه الله يومئذ صائماً -وكان من عادته أن يصوم ثلاثة أيام من كل شهر، وغالباً ما كان يصوم أيام: الثالث والرابع والخامس عشر من كل شهر هجري (الأيام البيض)- سمعت صوت انفجار في البيت، فهُرعت إلى مكان الصوت، فرأيت أخي عزت وصديقه الحميم مازن خان خارجين من الحديقة عبر المطبخ، الذي يعد بمثابة مدخل إلى الحديقة، وكان والدي قد سبقني إلى باب الحديقة، حيث رأى أخي وصديقه قد علا على وجه بعض الشحار، وبدا عليهما آثار الارتباك، فقال والدي لأخي بشكل عفوي: خذ مازن إلى المستشفى وبالفعل خرج أخي وصديقه من البيت خروجاً لا رجوع بعده.

في تلك الأثناء سمعت صافرة سيارة الإطفاء في المنطقة، فعلمت أنها آتية إلينا، فهُرعت إلى الغرفة التي في الحديقة، ولم أجد فيها أي حريق، بل رأيت بعض علب البيبسي، التي تبين لي فيما بعد، أن أخي وزميله كانا يُعدَّا هذه العلب لتكون عبوات تفجيرية، فقمت على عجل بإخفائها في مكان من الحديقة، وأسرعت إلى باب الدار الذي كان يُقرع، فوجدت رجال الإطفاء هامّين بالدخول، فقلت لهم: إن الأمر لا يستدعي دخولكم، قالوا: لا بد من الدخول، فدخلوا، ثم تتابعت أجهزة الأمن بالمجيء والدخول إلى البيت، وطلبوا التعرف على صاحب البيت -وهو والدي بالطبع- وسألوه بعض الأسئلة، ثم قاموا بتفتيش غرف البيت غرفة تلو الأُخرى، ووجدوا أن الغرفة المخصصة لاستقبال الضيوف -وهي خلف باب الدار مباشرة- مغلقة، فطلبوا فتحها، وكان أخي قد وضع فيها من غير علم أحد ما تم تصنعيه من علب البيبسي المعدة للتفجير، وقد تبين لنا هذا فيما بعد.

في تلك الأثناء حضرت والدتي -وكانت خارج البيت- فرأت رجال الأمن قد أحاطوا بالبيت، فلم تدرِ حقيقة الأمر، ثم تلاها بالمجيء أخي رضوان -وكان في سن السابعة عشرة- فوجد الأمر كذلك، ثم تم اصطحابي ووالدي -رحمه الله- من قبل أجهزة الأمن إلى فرع الأمن السياسي الكائن في حي الروضة بدمشق في ذلك الحين، وكان ذلك في حدود الساعة التاسعة ليلاً، ويا لها من ليلة ليلاء!

فترة التحقيق

داخل فرع الأمن السياسي تم وضع والدي في غرفة، وأنا في غرفة أخرى، ولم يمضِ وقت قليل حتى سمعت صوت صراخ وتألم، كان في الواقع صوت والدي وهو يتلقى سياط الجلادين لانتزاع الاعترافات منه؛ كان همهم الأكبر معرفة مكان وجود أخي عزت، ثم تم اصطحابي إلى غرفة رئيس الفرع –وإن لم تخنِ الذاكرة كان اسمه علي دوبا– وبدأ بتوجيه الأسئلة إلي بخصوص أخي عزت، وماذا أعرف عن نشاطه، فأخبرته أنه لا علم لي بأي نشاط لأخي، سوى أنه ملتزم دينيًّا، وأخبرتهم أيضاً أنني لا علم لي بمكان وجوده –وكان الأمر كذلك بالفعل– وعلى غفلة مني وجَّه إليَّ أحد عناصر الأمن –ويبدو أنه كان موكولاً إليه ضرب المعتقلين وتعذيبهم– أقول وجَّه إلي صفعة مؤلمة على خدي الأيمن، أسال الدم من شفتي، ثم اصطحبوني إلى غرفة مجاورة، ووضعوني في الدولاب المعد للتعذيب، وبدأ الجلادون بتعذيبي طالبين مني الدلالة على مكان وجود أخي، وكان الجواب دوماً أنه لا علم لي بمكان وجوده، والأمر كان كذلك بالفعل.

مع منتصف الليل أخذوني بسيارة لوحدي، وطلبوا مني الدلالة على بعض منازل أقاربي، والدلالة أيضاً على المحل الذي يعمل فيه والد صديق أخي مازن خانكان، وكنت أخبرتهم تحت الضرب والتعذيب أني أعلم مكان عمله –كان يعمل في محل لبيع الإكسسوارات الخاصة بالخياطة بسوق الخياطين– فطلبوا أولاً الدلالة على المحل فدللتهم عليه، وبالطبع كان المحل مغلقاً؛ لأن الوقت كان قد جاوز منتصف الليل– ثم طلبوا مني أن أدلهم على بيت خالاتي، فدلالتهم أيضاً على بيوت خالاتي: عائشة، وسامية، وسميرة، ودخلوا تلك البيوت وفتشوها، ولم يجدوا أثراً لأخي.

في ساعات متأخرة من تلك الليلة الليلاء، اصطحبوني إلى سجن الشيخ حسن، وكان ذا سمعة مرعبة– فدخلته في حدود الثانية ليلاً، وكان رئيس النوبة في تلك الليلة شخصاً يُدعى (أبو عيد) وقد تبين لي فيما بعد أنه كان شيعيًّا، بل رافضيًّا حاقداً، فسألني عن اسمي، فأخبرته أن اسمي عمر، وما أن سمع باسمي إلا وشعرت الشرر يخرج من عينيه، فاستقبلني بلطمة على وجهي، كانت بمثابة الاستقبال، والتعريف بطبيعة الجو الذي سأكون فيه. ثم اصطحبوني إلى زنزانة منفردة مظلمة، تحتوي على مصطبة للنوم، طولها مترين وعرضها نحو ستين سنتمتراً (٦٠سم) وُضِع عليها بعض البطانيات الممتلئة بالغبار والروائح الكريهة، وبجانبها مكان لقضاء الحاجة فيه صنبور من الماء. ولما كان التعب قد أخذ مني كل مأخذ، استلقيت على تلك المصطبة، ورميت علي بطانية، واستسلمت للنوم –ولا أذكر تماماً فيما إذا تم استدعائي ثانية في تلك الليلة، أم في الليلة التالية– من أجل الضرب والتعذيب، وشعرت في أثناء النوم أن شيئاً ما يمشي علي جسمي فوق البطانية، فلم أكترث لذلك، لأن النوم والتعب قد أنهكني، وعلمت فيما بعد أن جرذاً كان

يخرج من حفرة خلف مكان قضاء الحاجة باحثاً عن رزقه، وأغلب الظن أنه كان موكلاً بإزعاج نزلاء السجن، وقضِّ مضاجعهم، وإفساد راحة نومهم!

في صباح اليوم التالي في حدود التاسعة صباحاً استُدعيت إلى ساحة السجن، فوجدت الجلادين يعذبون والدي، وقد نزعوا عنه ثيابه، إلا ما يستر عورته، وهو يدور حول بركة ماء، ويردد قول الله تعالى: ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين﴾ (الأعراف:١٢٦) وكان من جملة تعذيبهم إياه، وضعه في بركة الماء بين الحين والآخر، وكان الجو في تلك الأثناء بارداً، ثم إخراجه منها، كانت السياط تنهال على ظهره ورجليه، وفعلوا معي الشيء نفسه، فأدخلوني في الدولاب، وبدؤوا يمارسون علي ساديتهم[١]، وكان يتخلل ضربهم إنزالي في بركة الماء، وضربي من أهل الاختصاص، وتكرر هذا الفعل في الأيام التالية، وكانوا أحياناً يستدعوننا بالليل لممارسة التعذيب، وتفريغ شحنة الحقد التي في داخلهم، واستمر الأمر بنا هكذا نحو أسبوع، ثم هدأ الحال، واستقر بنا المقام في سجن الشيخ حسن، وبئس المقام هو!

ومما أذكره هنا، أنه في اليوم التالي لدخولي سجن الشيخ حسن، وفي أثناء تعذيبي في ساحة السجن، فُتح باب السجن، ورأيت الشيخ عبد الودود يوسف -رحمه الله- مكبل اليدين، والظاهر أن جلاوزة الأسد قد اعتقلوه صباح ذلك اليوم. كما أنه في اليوم الثاني أو الثالث فُتح باب السجن أيضاً، وكنت في ساحة السجن أنال من سياط الجلادين، ورأيت جماعة النقابين يدخلون باب السجن واحداً تلو الآخر، وهكذا كانت وفود السجناء تتوالى ليتم التحقيق معها، واستجوابها، فإما يُطلق سراحها بعد أيام، أو تمكث في السجن إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

في الأيام الأولى في سجن الشيخ حسن علمت أن أجهزة الأمن قد اعتقلت أيضاً أمي وأخي رضوان وأخي محمد -وكان في الصف السابع- إضافة إلى خالي أبي بشار ياسين حامد، واعتقلوا أيضاً جاراً لنا يدعى (عزمي حداد) أصله من فلسطين -وكان ضمن منتخب الفريق السوري لكرة القدم- وكان متعاطفاً معنا، وعلمت فيما بعد أن سبب اعتقاله أنه قال لأجهزة الأمن التي كانت متواجدة في بيتنا وقت وقوع الحادث: إن هؤلاء الناس -يقصد نحن- لا يفعلون أموراً تمس بأمن الدولة، أو كلاماً نحو هذا، فاعتقل لأجل كلامه هذا، وتم ضربه وإهانته، رغم تاريخيه الكروي العريق، وأذكر أني رأيته مرة في السجن يبكي بكاء الأطفال، مع ما كان عليه من مكانة، ولكن كما قال أبو البقاء الرُّنْدي في صدر مرثيَّته الأندلسية:

---

[١] (السادية) تعني الحصول على المتعة من خلال ألم ومعاناة الآخرين، سواء كان ذلك نفسيًّا، أو بدنيًّا، أو جنسيًّا؛ سميت بالسادية نسبة الى الماركيز دي ساد marquis de sade (1740-1814) الأديب الفرنسي المشهور، والذي تتميز شخصيات رواياته بالاندفاع القهري الى تحقيق اللذة عن طريق تعذيب الأخرين. يُنظر: الموسوعة الحرة.

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يُغرُّ بطيب العيش إنسان

ألمعت قريباً إلى أنه في أثناء فترة التحقيق معنا، تم اعتقال الأستاذ عبد الودود يوسف –رحمه الله– مؤلف "تفسير المؤمنين" الذي منعت السلطات الأسدية في سوريا تداوله، كما كان له عدد من المؤلفات الإسلامية ذات التوجه الحركي والفكري، وكتب أيضاً بعض الروايات السياسية، أذكر منها رواية "كانوا همجاً" ورواية "ثورة النساء"[1]، وأغلب الظن أن أمي هي التي ذكرت اسمه في أثناء فترة التحقيق، حيث إنها كانت –بترتيب من أخي عزت– تحضر بعض الدروس الدينية في بيته، وكانت زوجته هي التي تقدم تلك الدروس، كما أنني علمت أن الشيخ عبد الودود كان قبل يوم من وقوع الحادث قد حضر إلى بيتنا، وسأل عن أخي عزت، فأخبرته أمي أنه ليس موجوداً في البيت. واعتقلت مع الشيخ عبد الودود زوجته، وكانت حاملاً بطفل، كان الزوجان ينويان تسميته (جهاد) وعلمت فيما بعد أن أمي هي التي ذكرتها للمحققين تحت الضغط النفسي. كما اعتقل مع الأستاذ عبد الودود بعض طلبته منهم: الشاب بسام الحمصي، وكان يدرس في كلية الهندسة بجامعة دمشق في السنة الخامسة، وشخص آخر اسمه عبد الملك، يُكنى بأبي عبيدة. وكان ممن اعتقل بسبب الحادث الذي جرى في بيتنا شخص عادي، كان يقوم بتنظيف البناية يومين في الأسبوع!

وعلمت فيما بعد أن كل من كان يقصد بيتنا لأمر أو لآخر، كان يُوْقَف ويُستَجْوَب، وينال شيء قليل أو كثير من سياط الجلادين والساديين.

وُضِع كلٌّ من هؤلاء بزنزانة منفردة، وجرى التحقيق معهم كلٌّ على انفراد. وبعد أسبوع تم الإفراج عن أمي، وأخي محمد، وخالي ياسين ولاعب الكرة عزمي حداد، وزوجة الأستاذ عبد الودود يوسف وأخرين، وتم الاحتفاظ بي وبوالدي وأخي رضوان وبسام الأشقر والأستاذ عبد الودود يوسف وعبد الملك، فكنا نحن الستة على ذمة قضية واحدة.

ومما يجدر ذكره في أثناء فترة التحقيق أمران:

الأول: أنني في يوم من الأيام وأثناء مرور بعض السجانين في ممر الزنزانات، فُتح باب زنزانة أخي محمد، وكنت أسترق النظر من ثقوب نافذة باب زنزانتي، فوجدت أخي محمداً مستقبلاً القبلة يصلي، وهو في هيئة السجود، ووجدته هادئاً مطمئناً، وكأن شيئاً لم يكن، فلم يقطع صلاته، فكَبُرَ أخي في عيني، وصغرت نفسي في عيني، حيث كنت في تلك الفترة جزوعاً هلوعاً مضطرباً، إضافة إلى أنني لم أكن ملتزماً

[1] وقفت على مقال على موقع الجزيرة نت يفيد أن الشيخ عبد الودود يوسف –رحمه الله– نشر بعض كتبه باسم (جلال العالم) وأن أشهر مؤلفاته كتاب "قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله".

في عبادتي، حيث كنت أصلي مجاملة لوالدي، بيد أن الظرف الذي وجدت فيه نفسي على العموم، والموقف الذي رأيت فيه أخي محمداً على وجه الخصوص، جعلني أعود إلى ربي، وأصحح علاقتي مع الله، وأسلك المسار الذي يجب أن أسير به، وبالفعل فيما بعد حُببت إلي الصلاة، وقراءة القرآن والتوجه إلى الله بالدعاء، والالتجاء إليه.

الثاني: أنه في الأيام الأولى للاعتقال وفي أثناء فترة التحقيق معنا، أتيحت لي فرصة للحديث مع خالي أبي بشار من خلال ثقوب نافذة باب الزنزانة، وكنت في حالة معنوية سيئة، ويبدو أن خالي علم بحالي، فأخذ يرفع من معنوياتي، ويشد من عزمتي، ويصبرني على ما نزل بنا من البلاء.

ما بعد التحقيق

بعد أسبوع أو نحوه تم الانتهاء من عملية التحقيق معنا، وبدأت أستعيد شيئاً من صحتي، وأصبح الأمر الذي أنا فيه أمراً واقعاً، ينبغي علي أن أتقلم معه، وأوطِّن النفس عليه. والحدث الأبرز بعد الانتهاء من فترة التحقيق أنه كان في الزنزانة المجاورة لزنزانتي سجين يُكَنَّى بأبي فيصل، ولم أعد أذكر اسمه ولا من أي المناطق السورية هو، وأظن أنه من مدن الشمال السوري، سمعته يوماً يناديني –وكان الوقت بعد العصر بقليل– من نافذة الزنزانة المطلة على ساحة السجن، يناديني باسمي طالباً مني أن أمد يدي من النافذة لأتناول شيئاً يقدمه إلي، وكان ذلك يتم من خلال ربط ما يريد إيصاله إلي بواسطة حبل صغير، ثم يقذف به باتجاه نافذة الزنزانة فأمسكه، واستجبت لطلبه، ومددت يدي من نافذة الزنزانة وأمسكت بالحبل، فإذا مربوط به خرقة معقودة، فحللت عقدتها، وأخذت الخرقة وفتحتها، فإذا بها صفحة من القرآن الكريم من الحجم الصغير، وكانت الصفحة تبدأ من قوله تعالى: ﴿لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد﴾ (الممتحنة:٦) وتنتهي الصفحة الخلفية بقوله سبحانه: ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ (الصف:٥) وكان حفظ هذه الصفحة بداية رحلتي مع القرآن الكريم، حيث كان الأخ المذكور كلما انتهيت من حفظ ورقة قرآنية يرسل إلي بأخرى. ومما يذكر هنا أن الأخ أبا فيصل أُخذ في يوم من الأيام من بيننا، ولم نعد نسمع عنه خبراً، والمرجَّح أنه أُخذ إلى سجن تدمر، وأُعدم هناك مع الذين أعدموا في مجزرة تدمر الرهيبة.

وذات مساء شعرت بحركة في ممر الزنزانات، وكانت زنزانة والدي تحمل الرقم (٢) وهي أقرب إلى باب الممر المؤدي إلى الزنزانات، وكان عددها أربع عشرة زنزانة، سبع زنزانات على كل جانب وفي نهاية الممر مهجع، كنا نطلق عليه (الجماعية) حيث كان يوضع فيه بعض السجناء الذين كانوا قد أمضوا فترة لا بأس بها بين جدران الزنزانات المنفردات.

فتح السجان باب زنزانة والدي فوجده يصلي صلاة العشاء، وبعد أن أنهى صلاته طلب منه أن يُخرِج ما لديه من أوراق المصحف، فأخبره والدي أنه ليس لديه أية أوراق، فطلب منه أن يخرج من الزنزانة من أجل تفتيشها، وبالفعل خرج والدي من الزنزانة، وبدأ السجان بتفتيش الغرفة، فلم يخرج بطائل، وكنا نحن نراقب الموقف عن كثب من خلال ثقوب نافذة باب الزنزانة. وكانت زنزانتي تحمل الرقم (٥).

ثم جاء الدور علي وطلب مني السجان الخروج من الزنزانة، وبدأ التفتيش واستخرج بعض الصحف القرآنية، ثم اصطحبني إلى غرفة إدارة السجن، وسألني كيف حصلت على هذه الصحف، فأخبرته أنها وصلتني عن طريق الأستاذ عبد الودود يوسف، فاستدعى الأستاذ عبد الودود، وسأله عن ذلك

فأنكر، فوجه إليه لطمة على وجهه. ثم فُضَّ الأمر بعد أن سحبت الصحف القرآنية من أيدينا، وأخذت على إثر ذلك أحفظ القرآن عن طريق المشافهة من والدي والأخ بسام إلى أن يسر الله بعد تأمين صحف قرآنية جديدة، فعاودت الحفظ من الصحف التي كانت تصلني من رفاق السجن، وعلمت أن الله سبحانه لا يقطع عبده، ولو كان في أحلك الظروف وأصعبها.

سبق وألمحت إلى أنه دخل معنا السجن بعد يومين أو ثلاثة أيام من اعتقالنا جماعة من النقابين المحامين والمهندسين، أذكر منهم: المهندس رياض البسطاطي من دمشق، والدكتور المهندس جلال الدين الخانجي، والدكتور المهندس نبيل سالم وكانا من خيرة الأستاذة في كلية الهندسة في جامعة حلب، والمهندس غسان النجار، والمهندس مأمون السواح، والمهندس أبو حازم –وقد نسيت اسمه– والمهندس سليم خير بيك –وكان نُصَيريًّا معارضاً– ونقيب المحامين في حلب سليم عقيل، والمحامي عبد المجيد منجونة –تقلد إحدى الوزارات في بداية عهد الأسد الأب– والمحامي أبو اليسر –وقد نسيت اسمه– والمحامي الأديب ثريا عبد الكريم من مدينة أريحا، وآخرون فاتتني أسماؤهم، وكان هؤلاء الناس من كرام الناس ومن الطبقة الفاعلة في المجتمع، وكان سبب اعتقالهم مطالبتهم بالحريات العامة، وإطلاق سراح السجناء السياسيين، وإجراء تعديلات على بعض مواد الدستور، وأمور أُخر لست على علم بها، وكان هؤلاء قد استدعوا مع آخرين إلى بعض الأجهزة الأمنية لشرب فنجان قهوة، وطُلب منهم التراجع عن مطالبهم، فمن تراجع خلي سبيله، ومن أصر على مطالبه تم اعتقاله، ثم حُلت النقابات بعدُ، وشكلت نقابات بحسب المقاس ووَفْق الطلب، وتتمتع بقدرة عالية من النفاق والتمجيد والتسبيح في حمد النظام والقائد البطل!

كان لهؤلاء القوم إسهام بارز في خدمة السجناء ماديًّا ومعنويًّا بسبب ما كانوا يتمتعون به من معاملة خاصة، حيث سُمح لهم بالزيارات العائلية منذ فترة مبكرة من اعتقالهم، وسُمح لهم باقتناء الصحف، وتمتعهم بفسحة التنفس منذ وقت مبكر من اعتقالهم، وأمور أُخر لم تكن مسموحة لغيرهم. ومما أذكره هنا أنه في يوم من الأيام كان هؤلاء النقابيون في فسحة التنفس، وسمعت أحدهم –وكان المحامي عبد المجيد منجونة– يناديني باسمي، فوقفت على النافذة، فدفع إليَّ خمسين ليرة سورية، وكانت الليرة في تلك الأيام ذات قيمة، وبعد أيام وفي أثناء الفسحة وقف المحامي نفسه تحت نافذتي، وسألني عن سبب اعتقالي فأخبرته بالأمر. وكان بين يوم وآخر يُحضر لي بعض الفاكهة، ويسألني إن كنت أحتاج شيئاً.

بعد مُضي شهر من الزمن أو يزيد، سُمح لنا بالخروج إلى ساحة التنفس، واشترط السجانون علينا أن لا يكلم بعضنا بعضاً، فكان أحدنا لا يتجرأ على الكلام مع غيره إلا على حين غفلة من السجان، فيُخْبِر بعضنا بعضاً ما وصله من أخبار من هنا، أو هناك.

ومما أذكره في هذا الصدد أنه في يوم من أيام السجن وصل هؤلاء النقابين طعام من خارج السجن

عن طريق أهاليهم، وغالب الظن أن الأمر كان بترتيب منهم، فوزعوا على جميع السجناء من ذلك الطعام، وكنا قد حُرِمنا من طعام الأهل، واعتدنا على طعام المعلبات، كالسردين، والتونة، والحمص المطحون، والحلاوة بالطحينة.

كانت في سجن الشيخ حسن غرفة خارج البناء الذي يحتوي على الزنزانات، وكانت هذه الغرفة مخصصة لسجن الأفراد التابعين للأجهزة الأمنية، الذين يرتكبون بعض المخالفات التي تقتضي تأديبهم ومعاقبتهم، فكانوا يمضون في هذه الغرفة فترة قصيرة لا تتجاوز عشرة أيام أو خمسة عشر يوماً، ثم يُطلق سراحهم، ويذهبون لحالهم، وكان هؤلاء يعاملون معاملة خاصة من حيث الطعام، وفترة التنفس، وأمور أُخر. وذات يوم اقترب من نافذتي شخص من نزلاء تلك الغرفة، كان على وشك الخروج من السجن، وكان فيما يبدو متعاطفاً مع أصحاب التوجه الإسلامي، وسألني إن كنت أحتاج شيئاً من خارج السجن، وعرض عليَّ أخذ ساعة كان يضعها في يديه، فشكرته على الساعة، وسألته إن كان بإمكانه إيصال خبر إلى أهلي، فقبل بكل رحابة صدر.

حدث هذا وكان قد مضى على اعتقلنا ما يقرب من ثلاثة أشهر، حدثت في أثنائها مجزرة تدمر الرهيبة، وكان قد وصل خبر إلى أمي، يفيد أننا نحن الثلاثة: أنا وأبي وأخي رضوان، قد أُخذنا إلى تدمر، وجرى علينا ما جرى على كثير من إخواننا المسلمين، وحسب ما علمت بعد أن خرجت من السجن، أن أمي عندما طرق سمعها هذا الخبر، كادت تفقد صوابها، لكن الله سلم. وقد وفَّى الشخص الذي عرض عليَّ المساعدة بما قاله لي وذهب إلى بيت أهلي، وأخبرهم خبرنا، وأننا ما زلنا في سجن الشيخ حسن، فأدخل هذا الخبر الراحة إلى قلبي أمي. ومن الطريف هنا أنني قد أخبرت ذلك الشخص بأمر يكون علامة لأهلي على صدق ما يحمله لهم من خبرنا، وكان من خبر ذلك الأمر، أنه قبل أن اعتقل بفترة وجيزة، كانت قطة من القطط التي كانت تعيش معنا قد وضعت حملها في درج خزانة الملابس في الغرفة التي كنت أنام فيها، فأخبرت ذلك الشخص بهذا الخبر، وقلت له أن يخبر أهلي بذلك، ليطمئنوا إلى خبره، وبالفعل جرى الأمر وفق ما اتفقنا عليه، ووصل خبرنا وحالنا إلى أمي، فسُرُّوا بذلك كثيراً، وحمدوا الله على هذا بكرة وأصيلاً، وشكروا الشخص على ما قام به.

كان نظام الطعام في هذه الفترة يقوم على تخصيص مبلغ من المال، كان قدره في ذلك الحين ليرة ونصف الليرة السورية يوميًّا، وكان هذا المبلغ كافياً لشراء طعام ليوم، فكان يمر السجان يومياً، ويسأل كل سجين ماذا يريد من الطعام، وكانت الأطعمة المتاحة تنحصر في: الجبنة المعلبة، والزيتون، والحلاوة، والفلافل، والسردين، وما شابه من (النواشف) كما يسميها أهل الشام، وكان يُطلب منا إفراغ المعلبات من محتوياتها، وتسليمها إلى السجان، تحسباً أن يؤذي السجين نفسه، أما بالنسبة للشاي والفاكهة، فمثل هذا الأمور لم يكن مسموحاً بها. وكنا أحياناً -بعيداً عن أعين السجانين- نحتفظ بغطاء علبة السردين، أو

الحمص، كي نستعمله في تقطيع الخيار والبندورة.

وأذكر مرة أنه توفر لدي في الزنزانة المنفردة شمعة، وعود ثقاب، وبعض علب الحمص الفارغة، وكانت نفسي –بعد مضي تلك الفترة– تشتهي البيض المقلي، فطلبت من أحد السجانين أن يشتري لي بيضة، وربما بيضتين، ولست أذكر تماماً كيف تيسر أمر ذلك، أقول: شعلت الشمعة، ووضعتها بين علبتين فارغتين من علب الحمص، ووضعت فوقهما علبة ثالثة، تحتوي على شيء من الزبدة، ثم فقست البيضة فوقها، وانتظرت إلى أن نضجت، ثم التهمتها التهاماً، وقد سُررت بنجاح عملية قلي البيضة على الشمعة أكثر من سروري بتناولها!

بعد مضي نحو شهر من اعتقلنا، تأقلمت نفسي مع حياة السجن وحياة الزنزانة، فانكببت على حفظ ما يصلني من صحف قرآنية، فحفظت بحمد الله سوراً عديدة من بينها سورة البقرة، وأذكر أنني في يوم واحد حفظت أربع صفحات من تلك السورة، وكنت خلال فترة التنفس أقرأ على والدي ما حفظته، وأحياناً كثيرة كنت أقرأ عليه ما أحفظه في أثناء وجودنا داخل الزنزانات، وكان والدي رحمه الله حافظاً للقرآن، وكان من عادته أن يراجع يومياً جزأين من القرآن (٤٠) صحيفة قرآنية، وخلال شهر رمضان يراجع أربعة أجزاء، وكان يقرأ قراءة سريعة غير ملتزم بأحكام التجويد.

وكان من عادة والدي –رحمه الله– أيضاً أن يلتزم قراءة صفحة من القرآن يكررها في جميع صلوات اليوم الفرائض والسنن، ومن عجيب أمره –رحمه الله– في هذا الشأن التزامه الصارم ببداية الصفحة ونهايته، من غير مراعاة لإتمام المعنى، أو نهاية القصص، فالمعيار عنده أولاً وأخيراً بداية الصفحة ونهايته[1]، وهذا مما كنت أنتقده عليه. ثم هو بعد كان يعتمد كثيراً على ما تتضمنه صفحته اليومية من إشارات وتوافقات؛ فعلى سبيل المثال كانت الصفحة التي يقرأها يوم اعتقلنا، تبدأ بقوله تعالى: ﴿وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ (آل عمران:٧٨) فقد أخذ إشارة من هذه الآية تشير إلى ما كان يقوله له عناصر الأمن يوم اعتقالنا، واتهامنا بأمور لا صلة لنا بها.

[1] مما يحضرني على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿في الدنيا والآخرة ويسألونك عن اليتامى﴾ (البقرة:٢٢٠) وهي بداية صفحة، كان يبدأ بها من غير ربط مع ما قبلها. وأيضاً الآية الأخيرة في سورة الزمر، تنتهي بقوله تعالى: ﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ (الزمر:٧٥) وهذه الآية بداية صفحة، وعندما يكون يقرأ في الصفحة التي قبلها، يُنهي قراءته عند الآية الأخيرة في الصفحة، وهي الآية رقم (٧٤) ويدع الآية الأخيرة من السورة؛ لأنها بداية صفحة، وهكذا في اليوم التالي، يبدأ بالآية الأخيرة من سورة الزمر، ثم يبسمل ويبدأ بسورة غافر، وعلى هذا فقس، رحمه الله رحمة واسعة وغفر لنا وله آمين.

ومن هذا القبيل تفاؤله خيراً في اليوم الرابع لاعتقالنا؛ اعتماداً على قوله تعالى: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون * وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾ (آل عمران: ١٠٦-١٠٧) فقد سمعته في ذلك اليوم يحدث من كان معنا: إننا سنسمع خبراً مبشراً اليوم، ولعله كان متفائلاً بإطلاق سراحنا، لكن للأسف لم نسمع ذلك الخبر.

ومن ذلك أيضاً أنه يوم جاءنا طعام من خارج السجن عن طريق ذوي النقابيين، كان يقرأ بالصفحة الأخيرة من سورة المائدة، والتي تبدأ بقوله عز وجل: ﴿قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين﴾ (المائدة:١١٤) أذكر أنه لما وضعت صينية الطعام -وكانت كبيرة- في ممر الزنزانات، ووزّع الطعام علينا، قرأ علينا مباشرة تلك الآية، وعجبت ومن معي لهذا التوافق.

ومنه أيضاً أنه يوم تم الإفراج عن أخي رضوان بعد مرور أربعة عشر شهراً على اعتقالنا، كان والدي -رحمه الله- يقرأ صفحة من سورة غافر، تبدأ تلك الصفحة بقوله عز وجل: ﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب﴾ (غافر:١٧) فبعد أن نودي على أخي رضوان، وتبين لنا أن النداء من أجل إطلاق سراحه، قرأ علينا تلك الآية، فعجبت أيضاً لهذا التوافق.

ومنه أيضاً أنه في يوم من الأيام -بعد أن تم نقلنا إلى سجن القلعة المركزي- قام بعض السجناء باستعصاء في المهجع الذي نقيم فيه، وأراد أن يشعل النار في المهجع، مهدداً بحرق نفسه، وكان والدي يقرأ في ذلك اليوم في سورة النمل بالصفحة المتضمنة لقوله عز وجل: ﴿وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ (النمل:٤٨) فعجبت أيضاً لهذا التوافق.

ومن أظهر الموافقات أنه في يوم من أيام سجن الشيخ حسن، وكان الوقت بعد الظهر، كنا داخل الزنزانات نتجاذب أطراف الحديث من خلال ثقوب نافذة الباب، وإذا بنا نسمع صوت قفل باب زنزانة والدي يُفتح تلقائياً، وكان الأخ عبد الملك (أبو عبيدة) في الزنزانة المقابلة تماماً لزنزانة والدي، فلما سمع صوت القفل يُفتح، قال من تلقاء نفسه مباشرة: هذا كرامة لك يا عمي أبا عمر، فاستعرض والدي صفحته القرآنية اليومية، فإذا بها قوله عز وجل: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ (الأنفال:١٩) فعجبت لهذه الموافقة أيضاً.

هذا، وقد كان والدي -رحمه الله- يعول كثيراً على هذه الإشارات، ويذكرها لمن حوله. وكنت أتعجب لهذا الأمر، وسمعته مرة وربما أكثر من مرة أن مستنده الشرعي في هذا الأمر حادثة وقعت لسيدنا عمر رضي الله عنه، ولم أعد أذكر تفاصيل تلك الحادثة.

ومن الأمور التي تذكر في تلك الفترة أنه في أثناء مناوبة رئيس النوبة أبي عيد، كان من عادته أن يخرجني بنفسه من زنزانتي، أو يرسل إلي من يخرجني، ويطلب مني أن أنظف غرفة الإدارة، وساحة السجن، فكنت أفعل ذلك بجد وإخلاص، وأخبرني مرة أنه يحب أن أقوم أنا بهذا الفعل؛ لأنه -كما قال- يجدني أفعل ذلك بجد وإخلاص. وتجرأت مرة وأنا أقوم بالتنظيف، فطلبت منه أن يحضر لي مذياعاً، فقَطَّب حاجبيه، وزمزم شفتيه، ورفض الطلب، وأخبرني أن ذلك غير ممكن.

وكان من بين السجانين سجان يُكنى بأبي سعد، وهو من أهل حوران، وكنت ألمس منه تعاطفاً معنا، فكان يعاملنا معاملة حسنة، دون أن يتعدى واجبه المهني، وأحسب أن بعض المصاحف التي كانت تدخل إلى السجن إنما كانت تدخل عن طريقه، أو عن طريق سجان آخر من أهل حوران أيضاً.

وثمة سجان آخر كان شاباً -لم أعد أذكر اسمه- وكان كثير التعاطف معنا، خاصة أنا وأخي رضوان، ورأيته مرة تدمع عيناه تعاطفاً مع حالنا. وكان ذات يوم وهو في ساحة التنفس يراقب حركة السجناء، قد دفع مفتاح الباب الرئيسي للسجن إلى أخي رضوان، وطلب منه أن يوصله إلى سجان آخر في غرفة الإدارة، وكانت زنزانة أخي في الطابق العلوي من السجن، فأخذ أخي رضوان المفتاح واتجه صوب غرفة الإدارة، وكان بداخلها رئيس النوبة أبو عيد، فسأل أخي عن سبب مجيئه إلى غرفة الإدارة، فأخبره بالأمر، فاستشاط غضباً، وأخذ المفتاح من يد أخي، وذهب إلى السجان مؤنباً إياه على فعله الذي فعله.

وكان من عادتهم في سجن الشيخ حسن أن يُخرجوا السجين مرة كل خمسة عشر يوماً من أجل الاستحمام؛ إذ لم تكن توجد حمامات داخل الزنزانات، أو الجماعية، بل كانت توجد غرفة للاستحمام قرب غرفة الإدارة، فيدخل السجين، ويعطى له مقدار عشر دقائق لينظف جسمه بالماء الساخن. كما كان يستجاب للسجين إذا أراد أن يحلق شعره، فيأتي السجان بآلة الحلاقة الكهربائية من غير مقص، ويطلب من أحد السجناء أن يحلق لزميله، والسجان واقف يراقب عملية الحلاقة.

بقينا على هذه الحالة ما يقرب من خمسة أشهر، انقطعنا خلالها عن العالم الخارجي؛ إذ لم تكن ثمة وسيلة لمعرفة ما يجري في الخارج إلا من خلال من يَقْدِم جديداً إلى السجن، فيتلقفه الناس سائلين إياه عن سبب دخوله السجن، وعن أحوال الناس في الخارج، ونحو ذلك من الأسئلة، وما أكثر أسئلة السجين! كما أن جماعة النقابين بسبب ما تمتعوا به من معاملة خاصة، حيث سُمِح لهم باقتناء الصحف والمجلات المحلية، كانوا ينقلون لنا بعض الأخبار في أثناء فسحتهم التنفسية. ولما كان سجن الشيخ حسن غير بعيد من جامع زيد بن ثابت، الذي عند مدخل باب سريجة الغربي، وكان الشيخ محمد عوض قبل أن يغادر الشام، يقدم درساً كل يوم ثلاثاء بين المغرب والعشاء، وكان صوته ينقل عبر مكبرات الصوت، فقد كان صوته يصلنا، وكنا نسعد بسماع صوته؛ لما يحمله إلينا من علم وفائدة. وفي غير مرة كنا نسمع صوت عيارات

نارية متتابعة، وأغلب الظن أن تلك الطلقات كانت تبادلاً للنيران بين رجال المخابرات الأسدية، وبين الذين نذروا أنفسهم في سبيل الله.

ومما هو جدير بالذكر في هذه المرحلة، وكان له أثر في توجيه مسلكي في الحياة، أنني في يوم من أيام السجن كنت أسير إلى جانب الأستاذ الشهيد عبد الودود يوسف –رحمه الله– خلال فترة التنفس، وكان يحدثني عن جماعة الإخوان المسلمين، وكانت معرفتي بهم محدودة جداً، فرفع لي من شأنهم، وأخبرني أن لديهم جيشاً منظماً، وأن لديهم القدرةَ على مواجهة نظام الأسد، وتنحيَته عن حكم البلاد، وكفَّ يده عن التحكم بالعباد. ومما قاله لي في هذا الصدد: إن هذه الجماعة سوف تتسلم مقاليد الأمور، وربما تصبح أنت وزيراً –يقصد أنا– في حال تسلم هذه الجماعة لأمر البلاد، قال ذلك بشيء من المداعبة، والابتسامة تعلو محيَّاه، ومع مرور الزمان حلَّلت كلامه، فتبين لي كم كان –رحمه الله– واثقاً من نصر جماعة الإخوان المسلمين، وقدرتها على تسلم مقاليد الأمور، بيد أن المستقبل لم يصدق ذلك، وجرت الرياح على غير ما تشتهيه السفن.

ومرة أخرى كنت أسير مع الأستاذ الشهيد في ساحة التنفس، وسألني وربما أنا سألته فيما إذا كان بالإمكان أن أتقدم وأنا في السجن لاختبار الشهادة الثانوية[1]، فتبسم وقال بشيء من السخرية: ممكن أن تفعل ذلك، ويمكن أن تواصل دراستك إلى أن تحصل على شهادة الدكتوراه! وكانت كلمته هذه حافزاً لي في قابل الأيام لأتابع دراستي، وأحصل بفضل الله على شهادة الدكتوراه.

في الفترة الأولى من سجن الشيخ حسن أتيح لي مرة في أثناء فترة التنفس أن ألتقي الأستاذ الدكتور جلال الدين الخانجي، وهو رجل علم وعلى درجة عالية من الثقافة الشرعية والمعاصرة، وقد وصفه بعض السجانين يوماً بقوله: "هذا هو الشخص الوحيد الذي ليس مسجوناً"، وذلك لما كان يرى من انكبابه على القراءة، فلم يُر مثله محباً للقراءة والكتاب والمدارسة، وقد نفعني الله به خير انتفاع، وكان من الشخصيات التي تركت أثراً في حياتي بعد خروجي من السجن، وإلى هذا الوقت الذي أحرر فيه هذه المذكرات لا أنسى ابتسامته التي لا تفارق محياه– أعود بعد هذا الاستطراد لما بدأت به فأقول: كنت أسير معه جنباً إلى جنب، ونتحدث بشؤون العلم والثقافة، وكان من جملة ما جرى الحديث عنه العلوم الشرعية، وقد علم أنني أميل إلى دراسة علم أصول الفقه، فقال لي: إن علم أصول الفقه من العلوم المهمة التي ينبغي

[1] أشير هنا إلى أنني تقدمت أول مرة لنيل الشهادة الثانوية الحرة سنة ١٩٧٨، ونجحت بمعدل لا يؤهلني لدخول الجامعة، ثم عاودت الكَرَّة في السنة التالية، فلم أوفق بالنجاح، كان كل هذا قبل أن أدخل السجن، وأُذكِّر هنا أنني لم أكن طالباً نظاميًّا في تلك الأثناء، بل كنت أعمل مع والدي في ورشة الخراطة في مطار دمشق الدولي، وإلى جانب ذلك كنت أُحضِّر للتقدم لنيل الشهادة الثانوية.

الاعتناء بها والاهتمام بها؛ لأن باقي العلوم مستندة إليه، ومعتمِدة عليه، قال لي هذا أو نحواً منه، فرفع قوله ذلك من ثقتي بعلومنا، حيث كانت لا تزال ثقافتي الإسلامية في بداية تكوينها، وكنت لا أزال أنظر إلى علومنا الشرعية على أنها شيء من الماضي، الذي لا مكان له في حاضرنا، فجاء قوله هذا ليصحح الفهم، ويسدد المسار.

وساقنا الحديث فيما بعد إلى مالك بن نبي رحمه الله، وقد سبق أن ذكرت: أنني قبل دخولي السجن كنت قد قرأت كتاب مالك "دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين" وكان مما قلته للأستاذ الخانجي في ذلك الحديث: إن مالكاً تأثر بالحضارة الغربية، وكنت أظن أن هذا أمراً سلبيًّا، فأجابني بجواب مقنع، حيث قال: صحيح أنه تأثر بالحضارة الغربية، لكن تأثره كان تأثراً إيجابيًّا، ولم يكن سلبيًّا، فأقنعني جوابه.

ومما أذكره أيضاً، أنه ذات مساء نسي أحد السجانين أن يقفل باب المهجع الجماعي -وكان يقيم فيه الأستاذ عبد الودود يوسف -رحمه الله- وحده، لا يشاركه فيه أحد، وكان قد سُمح له بإدخال بعض الأواني وموقد للطبخ (بابور) إضافة إلى السماح له بإدخال بعض الكتب والمؤلفات، وسمعتُ أنه كان عاكفاً في تلك الفترة على كتابة رواية، ذُكر لي اسمها، بيد أنني نسيته، ولست على علم فيما إذا أتم كتابة هذه الرواية، أم غادر هذه الدنيا الفانية قبل إتمامها؟ وغالب الظن أن السماح للأستاذ عبد الودود بإدخال بعض الكتب والمؤلفات إنما كان الغرض منه الوقوف على ما يكتبه، وإدانته عليه. أعود فأقول: في ذلك المساء صنع لنا الأستاذ عبد الودود إبريقاً كبيراً من الشاي، وكنا قد حُرمنا من هذا المشروب لأكثر من ثلاثة أشهر، ثم مر على كل واحد منا وأفرغ له كأساً من الشاي، ثم عاد إلى زنزانته، وأغلق الباب، ومد يده من نافذة الباب وقَفَلَ قِفْل الباب، وكأن شيئاً لم يكن.

في الخامس والعشرين من شهر آب/أغسطس سنة ثمانين وتسعمائة وألف، وكان قد مضى على اعتقالنا ما يقرب من خمسة أشهر، دعينا نحن الستة: أنا ووالدي وأخي رضوان والأستاذ عبد الودود، وعبد الملك، وبسام الأشقر إلى غرفة الإدارة، ثم وُضِع القيد في أيدينا، وطُلب منا أن نستقل سيارة مخابرات (لاند روفر) وهذا النوع من السيارات مخصص للأجهزة الأمنية[1]، وفي السيارة وجدنا كيسين كبيرين يحتويان على علب بيبسي، وهما الكيسان اللذان تم مصادرتهما من غرفة الضيوف في بيتنا، وفي داخل السيارة جرى حديث بين والدي والأستاذ عبد الودود، لم أعد أذكر تفاصيله، وغاية ما أذكره أن والدي قال للأستاذ عبد

[1] من المؤسف غاية الأسف أن كلمة (الأمن) في ظل النظام الأسدي أصبحت في مخيال المواطن السوري تعني اللاأمن؛ ذلك أن تلك الأجهزة التي تصف نفسها بالأمن، أصبحت عيناً على الشعب، تراقب تحركاته وسكناته وهمساته، ولا نبالغ إذا قلنا: إنها تراقب أيضاً تنفسه للهواء، فأي أمن هذا!!

الودود: إن الله قال: ﴿فليعبدوا رب هذا البيت﴾ (قريش:٣) ولم يقل: فليعبدوا هذا البيت.

وصلنا إلى محكمة أمن الدولة الكائنة قرب السبع بحرات بدمشق، ثم تم استدعاء كل واحد منا على انفراد إلى المدعي العام، اذكر من اسمه (ضاهر)، وربما كان هذا لقبه، سألني عن تفاصيل ما جرى، فأخبرته بأنني لا أعلم عن أخي عزت سوى أنه ملتزم دينيًّا، وأنه في الآونة الأخيرة كان منكباً على عمل في الغرفة المعدة لعمل والدي، وعمله هو[١]، ولم أتجرأ يومئذ أن أسأله عن طبيعة العمل الذي يقوم به، لكن كنت أشعر أنه يعمل شيئاً لا يريد أن يطلع عليه أحد، وكل ما أذكره أنه طلب من والدي أن يخرط له قطعة من الخشب، تكون بمثابة قالب لعمل شيء معين. هذا ما قلته للمدعي العام، إضافة إلى إخباره أنني كنت منشغلاً في تلك الفترة من حياتي بأمور الرياضة، وأنه لا علاقة لي بأي جماعة إسلامية.

وجرى لمن معي من الإخوة مقابلات مماثلة كل على انفراد، ولم أعد أذكر ما أدلى به كل منهم، لكن ربما أدلى والدي بأن أخي عزت كان قد طلب منه خراطة تلك القطعة الخشبية، التي تقدم ذكرها. ثم عدنا إلى سجن الشيخ حسن، وبقينا ثمة عدة أيام، ثم تم نقلنا إلى سجن قلعة دمشق، وكان قد دخل علينا شهر رمضان المبارك ونحن ما زلنا في سجن الشيخ حسن. وأغلب الظن أننا أمضينا شهر رمضان كاملاً هناك، ودخل علينا عيد الفطر ونحن هناك أيضاً، وبعد أيام معدودات من عيد الفطر، تم نقلنا إلى سجن القلعة المركزي.

[١] مما هو جدير بالذكر هنا أننا كنا قد بنينا غرفة في الحديقة، ووضعنا فيها مخرطة معادن صغيرة، واشترى أخي عزت قبل الحادث مجموعة نجارة، وضعها في الغرفة نفسها، وكان والدي بعد انتهاء دوامه في عمله الرسمي في المطار، يعمل في هذه الورشة بعض الأعمال الخاصة، يكسب من خلالها شيئاً من الرزق، تساعده على تغطية تكاليف الحياة، أما أخي عزت فكان في أوقات فراغه يميل إلى عمل النجارة في هذه الغرفة.

في سجن قلعة دمشق

بعد مضي خمسة أشهر في زنزانة منفردة، وانقطاع شبه كامل عن العالم الخارجي، تم نقلنا إلى سجن القلعة بدمشق قرب جامع بني أمية الكبير (المسجد الأموي)، ووافق تاريخ نقلنا يوم الاثنين الثالث عشر من شهر شوال سنة أربعمائة وألف للهجرة، الموافق الخامس والعشرين من شهر آب/أغسطس سنة ثمانين للميلاد.

كان سجن القلعة في الأصل مخصصاً لسجناء القضايا الجنائية، لكن خُصص فيه مهجع واحد، كان يحمل الرقم (٢) لسجناء القضايا السياسية وأمن الدولة. تم وُضِعنا في هذا المهجع، وكان يحوي عدداً غير قليل من السجناء ذوي التوجه الإسلامي، الذين تم اعتقالهم جراء الأحداث التي شهدتها سوريا في منتصف سنة تسع وسبعين وتسعمائة وألف للميلاد، وكانوا من شتى المحافظات السورية، لكن أكثرهم من محافظتي: حلب وحماة.

بعد أن أخذنا أماكننا التي خُصصت لنا في المهجع، وكان يحوي أسرَّة من حديد كل سرير فوقه سرير، وكان هناك ما يسمى معزبة، وهي تخصص عادة لرئيس المهجع، أو لمن كان قد أمضى فترة طويلة في السجن، وكانت في المهجع معزبتان، الأولى: كان يجلس فيها أحد الأشخاص من مدينة حمص، اسمه وضاح الدروبي، والظاهر أنه كان منتسباً إلى جماعة الإخوان المسلمين، وكان معه في المعزبة نفسها شخصان آخران من مدينة حماة، وهما من جماعة أهل الدعوة، وكانا من أطيب الناس، وأكثرهم خدمة للسجناء ورعاية، كان أحدهما –واسمه عدنان– يميل إلى طلب العلم، وقد انتفعت به أنا وأخي رضوان، درست عليه "المنظومة البيقونية" في علوم الحديث، ومتن "الأجرومية" في النحو، ودرست عليه أموراً أُخر، لم أعد أذكرها، وأذكر أنه أثنى علي وعلى أخي رضوان كطالبي علم مميزين، ومما قاله لنا: نِعَم طلبة العلم أنتما، أو كلاماً من هذا القبيل. أما الشخص الآخر –واسمه ربيع– فكان مشرفاً على استلام الطعام وتوزيعه على السجناء.

بعد أن أخذنا أماكننا في المهجع تجمع الناس من حولنا، وشرعوا يوجهون إلينا الأسئلة التي عادة ما يُسألها كل سجين جديد، من حيث سبب سجنه، والأماكن التي تم اعتقلنا فيها، ونوع التعذيب الذي مورس علينا، وما شابه ذلك من الأسئلة المتعلقة بملابسات اعتقالنا. وأذكر أن الشيخ وضاح الدروبي سألني عن والدي وعمن تلقى العلم، فأخبرته أنه كان يحضر دروس الشيخ أحمد كفتارو[1] –رحمه الله– وكانت سمعة

[1] من الجدير ذكره أن والدي –رحمه الله– تلقى العلم على الشيخ عبد الوهاب الحافظ، الملقب بدبس وزيت، فعليه قرأ القرآن والفقه والأصول وبعض علوم الشريعة، وقرأ العربية على الشيخ إبراهيم اليعقوبي في جامع الدرويشية بدمشق، وكان مواظباً فيما بعد على دروس الشيخ أحمد كفتارو الأسبوعية بعد صلاة الجمعة في مسجد أبي النور في منطقة ركن الدين، وكان يُحضرني معه تلك الدروس في الغالب.

هذا الأخير في الأوساط الإخوانية وأوساط المتعاطفين معهم، أقول: كان سمعة الشيخ كفتارو عند هؤلاء وأولئك سمعة غير طيبة، من جهة أن الشيخ أحمد كان على علاقة وثيقة بحافظ الأسد؛ إذ عيَّنه هذا الأخير مفتياً للجمهورية العربية السورية، فلما سمع الشيخ الدروبي بأن والدي كان ممن يحضر عند الشيخ كفتارو، ما يعني أنه محسوب عليه، قطب حاجبيه، وزمزم شفتيه، وكفَّ عن الحديث.

وكان هذا الشيخ –وأحسب أنه من الذين حُمِلوا فيما بعد إلى سجن تدمر، وجرى عليه ما جرى على كثير من السجناء الذين كانوا في ذلك السجن الرهيب– أقول: كان هذا الشيخ يؤمُّ السجناء في المهجع الذي كنا نقيم فيه، وأيضاً كان يؤمهم في ساحة السجن في صلاتي الظهر والعصر في أثناء فترة التنفس، وكان أصحاب الشأن في المهجع قد أوكلوا أمر الإمامة لوالدي، فكان والدي يؤم الناس، وقد كان حافظاً لكتاب الله، فضلاً عن أنه كان ذا صوت حسن، وذات يوم فوجئت بتقدم الشيخ وضاح ليؤم الناس، وتراجع والدي ليصلي مع المأمومين، وقد استغربت لهذا الذي جرى، فحاولت الاستفسار عن حقيقة الأمر، فعلمت أن الشيخ وضاح كان وراء هذا التصرف؛ وذلك أنه كان يأخذ على والدي تقصيره لحيته، وكان والدي يقصر لحيته، ثم في الأيام التالية رأيت الشيخين الحمويين يحاولان أن يقنعا الشيخ وضاح بالتراجع عن موقفه، وبعد التي واللتيا استجاب الشيخ للأمر، وعاد والدي يؤم الناس داخل المهجع وفي ساحة السجن.

كان الشيخ وضاح يلقي درساً في الفقه –وكان يقلد المذهب الحنفي– بعد صلاة الظهر في المكان الذي كنا نصلي فيه صلاة الظهر في ساحة السجن، وكان أسلوبه في تقديم مادة درسه مميزاً، من حيث المضمون والأسلوب، ثم بعد أن غادر الشيخ وضاح السجن إلى مكان مجهول، تولى والدي تقديم الدرس، إضافة إلى أنه كان يقدم درساً كل يوم جمعة قبل صلاة الجمعة.

وكنا نصلي الجمعة في المكان نفسه الذي كنا نصلي فيه صلاة الظهر، وكنا صنعنا مظلة من أكياس الخيش، وعلقناها في الزاوية التي كنا نصلي فيها، نستظلُّ بها من حر الشمس. وكان يأتي إلينا من خارج السجن شيخ يُكنى أبو فرزات، ولم أعد أذكر اسمه، وكان يوماً يخطب الجمعة، وقد أطال في خطبته، فنهض الشيخ وضاح من مكانه، وتوجه بالقول للشيخ الخطيب: لقد أطلت الخطبة يا أستاذ! وكان الجو حاراً، فأمره الخطيب بالجلوس، ومضى في خطبته، ولم يعقب على كلامه.

كان في سجن القلعة مكتبة فيها كتب قيِّمة، ومن جملة ما كان فيها عدد من كتب الشهيد سيد قطب –رحمه الله– ومن بينها كتابه المميز "في ظلال القرآن"، ثم بعد فترة لاحقة تم سحب كتب سيد جميعها، لكن بقيت بعض الكتب لكُتَّاب مغمورين من الإخوان، كأحمد فائز، والبهي الخولي، وغيرهما. وكان نظام المكتبة يسمح بالاستعارة من المكتبة، كما يسمح بالجلوس للمطالعة داخل المكتبة، وكان قَيِّم

المكتبة شخصاً أمضى من عمره ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً في أمريكا، ويحمل الجنسية الأمريكية، وقد دخل السجن بسبب ارتكابه جريمة قتل بحق أحد أنسابه فيما أذكره، وكان هذا الشخص دمث الأخلاق، كنت أتردد عليه في أثناء فترة التنفس، وكان يحتفل بي، وكنت أحياناً أطلب منه أن يعلمني شيئاً من قواعد اللغة الإنجليزية.

كنت أتردد إلى هذه المكتبة كثيراً، وأستعير منها ما تيسر لي من الكتب، كما كنت أتجاذب أطراف الحدث مع قيِّمها، وكان يحدثني عن الحياة في أمريكا، وأن الإنسان في تلك البلاد لا يهتم إلا بنفسه. في صباح أحد الأيام رأيت قيِّم المكتبة يهم بالصعود على الدرج للدخول إلى المكتبة على عادته، وكانت المكتبة تقع في الجهة المقابلة للمهجع الذي أقيم فيه، وكانت مرتفعة عن الأرض، يصل إليها الإنسان بواسطة درج، وبعد فترة غير بعيدة من رؤيتي لقيِّم المكتبة، ألقيت نظرة من باب المهجع -وكان لا يزال مقفلاً، والوقت في حدود السابعة صباحاً- فإذا بقيِّم المكتبة واقف على شرفة باب المكتبة، يلقي نظرة يميناً وشمالاً، كأنها نظرة استطلاع لمن هو حول المكتبة، وبعد فترة وجيزة رأيت الدخان يخرج من النافذة التي تعلو باب المكتبة، ورأيت بعضاً من حرس السجن يُهرعون إلى المكتبة، للوقوف على حقيقة ما يجري، ثم رأيتهم يحملون قيِّم المكتبة ببطانية، وقد تفحم جسمه، وعلمنا فيما بعد أنه قد حرق نفسه، وكانت في تلك الفترة قد شاعت عنه إشاعة تتهمه بفعل لا أخلاقي مع بعض السجناء.

في بداية وجودي في سجن القلعة، كنت متلهفاً لقراءة الكتب الإسلامية، وكنت في الأيام الأولى من سجن القلعة أسير في ساحة التنفس مع الأستاذ عبد الودود يوسف -رحمه الله- ومعنا شخص آخر، فتوجهت بالسؤال للأستاذ عبد الودود يوسف قائلاً: إن نفسي تواقت للقراءة، فماذا تنصحني أن أقرأ، ومن أين ترى أن أبدأ رحلتي الثقافية والعلمية؟ فتبسم ضاحكاً من سؤالي، ولم يجبني جواباً محدداً، وربما قال لي: اقرأ ما تيسر لك من كتب الإسلام.

كان الأستاذ عبد الودود في أيامنا الأولى في سجن القلعة يقرأ علينا من "صحيح البخاري" بعد صلاة العشاء من كل يوم، يقرأ متن الحديث، تاركاً لسنده، معلقاً بعض التعليق على ما يتضمنه الحديث من قواعد وأحكام ومسائل. وقرأت على والدي في تلك الفترة كتاب "مراقي الفلاح" للشرنبلالي -وهو شرح لمتن نور الإيضاح في الفقه الحنفي- وكان والدي يقلد المذهب الحنفي، وربما تعصب له أحياناً- وقرأت عليه أيضاً كتاب "علم أصول الفقه" للشيخ عبد الوهاب خلاف، وقد انتفعت بقراءة هذين الكتابين على والدي انتفاعاً كبيراً، كما بدأت بالقراءة عليه في فترة لاحقة من كتاب "الاختيار لتعليل المختار" للموصلي، وكنت أنوي حفظ متنه، وشرعت بالفعل بالحفظ، لكنني وجدت نفسي بعد فترة أنني لا أستطيع أن أوفق بين حفظ القرآن وحفظ هذا المتن، فعدلت عن ذلك، واكتفيت بدارسة الكتاب على والدي -رحمه الله-. كما قرأت في فترة لاحقة كتاب "الهدية العلائية" لمحمد علاء الدين بن محمد أمين عابدين الدمشقي

الحنفي، وهو كتاب في الفقه الحنفي، قرأته بنفسي، وانتفعت بما فيه.

ومن الكتب التي قرأتها في تلك الفترة كتاب "العبادة في الإسلام" للشيخ القرضاوي –حفظه الله– ومن أهم الكتب التي قرأتها، وتركت أثراً في نفسي كتاب "جند الله ثقافة وأخلاقاً" للشيخ سعيد حوى –رحمه الله– وقرأت أيضاً كتاب "تذكرة الدعاة" للبهي الخولي، وكتاب "كيف ندعو إلى الإسلام" للشيخ فتحي يكن –رحمه الله– رئيس الجماعة الإسلامية في لبنان. وعكفت أيضاً على قراءة بعض كتب مالك بن نبي –رحمه الله– ولا أنكر أنني كنت لا أفهم بعض ما كنت أقرأه، وكنت كثيراً ما أكرر ما أقرأه –أقصد تكراره في أثناء القراءة– كي استوعب مضمون ما أقرأ، وهكذا نشأت عندي هذه العادة السيئة، عادة الإعادة لما كنت قرأته لأفهم الفكرة، ولبئس تلك العادة.

وكان في المهجع الذي كنت أقيم فيه جماعة يهتمون بفكر مالك بن نبي وفكر تلميذه الأستاذ جودت سعيد مؤلف كتاب "مذهب ابن آدم الأول" وكتاب "حتى يغيروا بما في أنفسهم" وكتاب "اقرأ" وغيرها من الكتب، كانوا كثيراً ما يشجعونني على القراءة، ويحتفون بي عندما أزورهم في المعزبة المخصصة لجلوسهم، وكان هؤلاء القوم يعادون أصحاب التوجه الصوفي، وكان والدي يميل إلى أهل التصوف، بل كان واحداً منهم، وكانت له (حضرة) يقيمها يوم الجمعة بعد العصر على ما أذكر، يذكرون فيها الله، وفي النهاية يقفون على شكل دائرة ويرددون قول: الله الله...وكنت أحضر معهم على غير قناعة مني، بل مجاملة لوالدي، وكان من شأن والدي –رحمه الله– أنه إذا التزم أمراً داوم عليه وثابر وواظب، ثم بعد مدة تجرأت وقلت لوالدي لا أرغب بالمشاركة في هذه الحضرات، فقال لي: كما ترغب، وكنت وقت الحضرة أجلس على سريري، وأقرأ ما بين يدي من كتاب.

في سجن القلعة تابعت حفظي لكتاب الله، وكان الأمر هناك ميسراً، فحيازة مصحف أمر متاح ومباح، ووالدي قريب مني، والمكان متسع...وكان من عادتي أن أجلس كل يوم بعد صلاة الفجر قرب نافذة مهجعنا المطلة على ممر السجن، وكنت أحفظ كل يوم صفحة من القرآن، أكررها طيلة اليوم مع كل صلاة، سواء أكانت الصلاة سنة أم نافلة، وعندما أجد لدي فراغاً، كما خصصت وقتاً آخر لمراجعة ما تم حفظه من القرآن بداية، واستمر الأمر على هذه الحال إلى أن يسر الله لي ختم القرآن كاملاً، وكانت آخر صفحة حفظتها من كتاب الله الصفحة الأخيرة من سورة الزخرف، كان هذا في منتصف سنة إحدى وثمانين وتسعمائة وألف، فتكون المدة التي استغرقتها في حفظ القرآن قرابة خمسة عشر شهراً أو يزيد، وبعد أن أنعم الله علي بحفظ القرآن، خصصت مقداراً يومياً للمراجعة، كنت أراجع محفوظاتي لوحدي مستعيناً بكتاب الله بين الحين والآخر لضبط ما تم حفظه. وغالب الظن أنني سلكت في هذا مسلك والدي –رحمه الله– حيث كان يراجع في غير رمضان جزأين من القرآن، أي أنه يختم القرآن مرتين كل شهر، أما في رمضان فكان يقرأ يوميًّا أربعة أجزاء.

وأذكر أنني بمناسبة ختم حفظ كتاب الله صنعت لرفاقي في السجن نوعاً من الحلوى الدمشقية تسمى (الحبوبية) كنت سألت والدتي عن كيفية صنعها، فأرشدتني إلى ذلك، جزاها الله كل خير، وهي تتألف من القمح المجروش أساساً، يسلق ويغطى بقطعة قماش سميكة كي تتفتح الحبوب، ثم يضاف إليه حمص وفول منقوعين بالماء وقد نُزعت عنهما قشورهما، وسكر، إضافة إلى الماء، وتوضع على النار إلى أن تنضج الحبوب، وينعقد الماء، ثم تسكب في أوعية زجاجية، ويوضع فوقه جوز الهند المجفف المبروش.

في تلك الفترة قرأت على والدي –رحمه الله– ختمة كاملة عن ظهر قلب من القرآن الكريم، غير ملتزم بأحكام التجويد، حيث إنني حفظت القرآن من غير مراعاة لأحكام التجويد؛ إذ لم أكن على معرفة بها، ولا سبق لي أن قراءة كتاباً حولها أو درستها على شيخ من الشيوخ، لكن أذكر أنه كانت ثمة رسالة في التجويد للشيخ عبد الوهاب الحافظ المشهور بلقب (دبس وزيت)، كانت في مكتبة والدي، وغالب الظن أني قرأتها بنفسي، لكنني لم أعي مضمونها تماماً، ولم ألتزم ما جاء فيها من أحكام، علماً أنني التقيت في السجن بعد أن أنهيت حفظ القرآن شيخاً أحسبه من مدينة دوما، كنت أقرأ عليه بعضاً من القرآن، فعرض علي أن يعلمني أحكام التجويد، فأبيت لأنني لم أكن أدرك وقتئذ أهمية قراءة القرآن بالتجويد، ولم أكن على علم أيضاً أن القراءة بالتجويد واجب شرعي، ولم أتنبه لذلك إلا بعد سنين عديدة من حفظي لكتاب الله.

كنت أمضي أكثر وقتي في سجن القلعة بين مراجعة للقرآن الكريم، وقراءة للكتب الشرعية، وكنت أميل إلى الوحدة والانفراد عن الناس، وأنأى بنفسي عن الاجتماع بهم، أو الجلوس إليهم، ومرجع هذا فيما أحسب إلى نشأتي الأولى من جانب، وأيضاً إلى عدم ثقتي في نفسي. كنت أجد راحتي مع الكتاب، وقد أمدني الله سبحانه بقوة كبيرة في الصمود وراء الكتاب والصبر عليه، فكنت أجلس الساعات الطوال وأنا أقرأ، وأحسب أن ذلك من فضل الله علي، ومع كل هذا لا أحسب نفسي قارئاً جيداً؛ لأنني لم أكن أجيد طرق القراءة الصحيحة، وكانت عادة التكرار لما أقرأه من أسوء العادات التي اكتسبتها من القراءة، وأقضَّت مضجعي، ولا تزال، والتي لم أتخلص منها على الرغم مما بلغته من سن، وما نلته من شهادات.

بعد أن حُبِّب إلى نفسي طلب العلم، عمدت إلى التسجيل لاختبار الشهادة الثانوية، وأحضرت المنهاج الدراسي المقرر على طلبة الشهادة الثانوية، ودرست المنهاج بنفسي، واستعنت أحياناً ببعض الأستاذة ممن معي في المهجع، أذكر منهم أستاذاً من مدينة معرة النعمان التابعة لمحافظة حلب، كان دارساً لعلم الفلسفة، ويحمل شهادة علمية بهذا العلم، وكانت نفسي لا تطيق هذه المادة ولا أتفاعل معها، فاستعنت به في دراسة المقرر، كما استعنت بمدرس آخر متخصص في علم العربية، وأحسب أنه كان من خريجي جامعة الأزهر.

تقدمت لامتحان الشهادة الثانوية في السجن نفسه، حيث خصصوا للطلاب المتقدمين لنيل

الشهادة الثانوية مكاناً خاصاً، وأرسلت وزارة التربية لجنة لمراقبة سير عملية الامتحان. ومما أذكره هنا أنه في امتحان مادة التربية الإسلامية سمح لي مراقب القاعة أن أقرأ على مسامع المتقدمين للاختبار المقرر من حفظ القرآن، فكنت أقرأ والآخرون يكتبون. وقضي الامتحان على خير، وظهرت النتائج، وكنت من الناجحين والحمد لله، فسُررت كثيراً لهذا النجاح، وكانت رغبتي أن أدخل كلية الشريعة لأدرس العلوم الشرعية، فجرى الأمر على ما كنت أرغب[1].

في سجن القلعة سُمح لنا بالزيارات العائلية، كباقي السجناء المدنيين، وأمضينا فترة ما بين العيدين من غير أي حدث يُذكر، أو أذكره أنا على الأقل.

[1] أشير هنا إلى أن معدل نجاحي في الشهادة الثانوية ذلك العام لم يكن مرتفعاً، بل متواضعاً، حيث كان يؤهلني للدخول في الفروع الأدبية التي لا تحتاج إلى درجات مرتفعة، كالجغرافيا، والتاريخ، والشريعة، ونحوها من الفروع، فآثرت التسجيل في كلية الشريعة من غير تردد.

فترة التوتر والقلق

دخل علينا عيد الأضحى وصلينا صلاة العيد في باحة السجن مع باقي السجناء، وبعد الصلاة أخذ المصلون بترديد قول (الله أكبر) وقد تزعم ذلك الأستاذ عبد الودود يوسف -رحمه الله- وتطور الأمر إلى أن أصبح أشبه ما يكون بالمظاهرة، فتدخلت إدارة السجن في تفريق السجناء عن طريق إعادتهم إلى مهاجعهم، وقضى الأمر من غير حدوث أمر يذكر، لكن ما أذكره أنه كان لهتاف (الله أكبر) من أفواه السجناء وَقْعٌ كبير في نفسي، وتخيلت لو أن الشعب بأكمله خرج عن بكرة أبيه، وردَّد في كل مكان هذا الهتاف، كيف سيكون مآل المستبدين والظلمة وسفاكو دماء البشر.

بعد عيد الأضحى مباشرة -على ما أذكره- استطاع عبد الملك (أبو عبيدة) أن يخرج من السجن بكفالة، وسمعت أنه بعد أن خرج من السجن غادر سوريا. ثم في يوم من الأيام استدعي الأستاذ عبد الودود من المهجع الذي كان يجمعنا، وأُخذ إلى مكان مجهول، ولم يعد، ولم نسمع عن خبره شيئاً إلى أن جاء يوم أُخبرنا فيه أن الأستاذ عبد الودود قد قضى نحبه تحت سياط الجلادين رحمه الله، والظاهر أن أجهزة الأمن قد وقفت على حقيقة نشاط الأستاذ عبد الودود يوسف، فضغطت عليه لنزع الاعتراف منه، ومارست عليه أنواعاً من التعذيب للحصول على أكثر ما يمكن من معلومات عن نشاطه وتحركاته وارتباطاته بجماعة الإخوان المسلمين.

والذي أميل إليه أن تصفية الأستاذ عبد الودود يوسف كانت أمراً متعمداً ومخططاً له؛ إذ إن السلطة الأسدية الحاقدة كانت قد أخذت على نفسها تصفية كل قيادات الإخوان المسلمين، بل عمدت إلى تصفية الجماعة كاملة، بحجة أنها جماعة ممولة من الغرب، وتعمل لصالح إسرائيل!! هذا، واستباقاً لسير الأحداث، وفي جلسة من جلسات المحكمة، كان قد سألني القاضي عن علاقتي بالأستاذ عبد الودود يوسف، فأخبرته أنه لم تكن لي به أي علاقة، وإنما كانت علاقته مع أخي عزت -والأمر كان كذلك بالفعل- أقول: سألني ذلك، وأجبته بذلك، ثم قال لي: هل تعلم أن هذا الذي كنتم تتعاملون معه كان عميلاً للعدو الصهيوني وإسرائيل! فأظهرت علامات التعجب أمام القاضي، وقلت في نفسي: ما أكذبكم أيها الأوغاد السفلة، وما أحقركم أيها الطغاة المجرمون، أصبح في عرفكم الشريفُ عميلاً، والعميلُ شريفاً!

بعد فترة وجيزة أيضاً تم استدعاء الأخ بسام الأشقر، وأُخذ إلى جهة مجهولة، ثم علمنا أنه أُحيل إلى سجن تدمر، كما أُحيل أناس آخرون إلى السجن نفسه، ليسوا على قضيتنا. وأذكر أنني في تلك الأيام عشت حالة توتر وفترة قلق؛ إذ كنت أتوقع بين الحين والآخر أن أُحال أنا ووالدي وأخي رضوان إلى سجن تدمر الرهيب، ولكن الله سلَّم، المهم أن تلك الفترة العصيبة مضت على خير، وبدأ الهدوء والاستقرار يعود إلى نفسي تدريجيًّا، حدث هذا في أواخر سنة ثمانين وتسعمائة وألف للميلاد، وأوائل سنة إحدى وثمانين

وتسعمائة وألف للميلاد.

دخول كلية الشريعة بجامعة دمشق

عندما فُتح باب التسجيل في الجامعة سارعت للتسجيل في كلية الشريعة بجامعة دمشق، وكلفت في ذلك والدتي، وربما خالتي باسمة؛ كونها على صلة بالشأن الجامعي؛ إذ كانت تدرس في كلية الفيزياء والكيماء. ودخولي الجامعة وتحديداً كلية الشريعة لم يكن الغرض منه ماديًّا، وإنما الغرض الأساس تحصيل العلم الشرعي، وكانت نفسي تتشوف أن أصبح يوماً ما أستاذاً في الجامعة أُدرِّس علوم الشريعة. بعد أن تم التسجيل، اقتنيت مقررات الفصل الأول من السنة الأولى، ولم أعد أذكر تماماً مقررات ذلك الفصل، بيد أنها على العموم كانت مقررات تتعلق بعلوم الشريعة الأساسية: العقيدة والفقه والتفسير والحديث...

وكان معي في السجن شاب قد سبقني بعام في التسجيل بكلية الشريعة اسمه أحمد محفوظ، كان معتقلاً بقضية جنائية، وأذكر أنه كان محكوماً عليه بالإعدام، ثم خُفِّف عنه الحكم إلى المؤبد، فكان يساعدني فيما أحتاج إليه في أمور الجامعة، وكان مرجعي فيما أرغب بالاستفسار عنه. وأشير هنا إلى أنه في تلك الفترة كان قد فُرض على الطلبة الجامعيين –طلاب وطالبات– لباسٌ موحدٌ، وكانت أبواب الجامعة تخضع لحراسة أمنية مشددة، ولا يمكن الدخول إلى الجامعة إلا من خلال البطاقة الجامعية الخاصة بالطالب.

جاء موعد اختبار الفصل، وتقدمت إليه بكل حماسة وهمة، وكانت العادة قبل فترة الامتحان بفترة وجيزة أن نزود إدارة السجن بمواعيد الاختبار، فكانت تأتي دورية من الأمن الجنائي مؤلفة من عنصرين أو ثلاثة إلى السجن قبل موعد الامتحان بساعة، ثم تصطحب كل طالب إلى قاعة الامتحان، وكان يدخل عنصر الأمن مع الطالب، ويجلس في مكان ما من القاعة، ويبقى العنصر الآخر خارج القاعة يرقب السجين عن كثب. وكانت عناصر الأمن الجنائي في الأغلب عناصر طيبة، تتعاطف مع السجين، وأذكر أنني في أغلب المرات التي ذهبت فيها إلى الاختبار، ذهبت من غير وضع القيد في يدي، وكانوا يعاملونني معاملة لطيفة وحسنة، بل في إحدى المرات، رافقني أحدهم ضمن شوارع دمشق، وتبادل معي أطراف الحديث، وأنا من غير قيد، وكانت أمي تأتي إلى الجامعة لوحدها وأحياناً برفقة إحدى خالاتي، وبُعيد الانتهاء من الاختبار أجلس معها وأتحدث إليها، ثم تنصرف لشأنها وأعود أنا إلى السجن. وذات مرة جلست أنا ووالدتي وعنصر الأمن في حانوت للمرطبات، وشربنا كأساً من عصير الفواكه. وتجرأت مرة على عنصر من العناصر الأمنية المرافقة لي –وقد شعرت بتعاطفه معي– فطلبت منه أن أذهب إلى البيت، فاعتذر عن تلبية طلبي بكل أدب ولباقة.

ومما أذكره هنا، أن من بين المقررات الدراسية التي كنت مطالباً بدراستها كتاباً بعنوان "نظام الإسلام" وكان من تأليف الأستاذ مصطفى ديب البغا، وحصل أنه في النسخة التي كانت في حوزتي تحتوي العديد من الصفحات الفارغة، فطلبت من عناصر الأمن بُعيد الانتهاء من اختبار إحدى المواد التي كانت مقررة

علينا مقابلة الأستاذ البغا، فاصطحبوني إلى غرفته، فوجدت في مكتبه طالبتين منقبتين، كان يتبادل معهما أطراف الحديث، فاستقبلني الأستاذ البغا بكل حفاوة، وأطلعته على الكتاب، فأخذه منه، وزودني بنسخة أخرى لا نقص فيه، وأخبرني أيضاً بما هو مطلوب من الكتاب، وما هو غير مطلوب، وخرجت من مكتبه بصحبة عناصر الأمن، وأنا فرح بما يسره الله لي من تبديل الكتاب بآخر لا عيب فيه، وأيضاً بمعرفة ما الذي يجب علي دراسته للاختبار.

ومرة أخرى قدمت اختبار مادة التفسير، وبعد الاختبار طلبت من عناصر الأمن أن أقابل أستاذ المادة كي يختبرني في المقرر الشفهي، أقصد المقرر من حفظ القرآن، فأخذوني إلى مكتب الأستاذ نور الدين عتر، وكان معه في الغرفة أستاذ آخر لم أعد أذكر اسمه، فطلب مني الأستاذ نور الدين عتر –رحمه الله– أن أقرأ من بداية سورة لقمان فقرأت بكل ثقة، ثم طلب مني أن أقرأ من أول سورة نون والقلم، ففعلت ذلك، وأثني علي، وخرجت من غرفة الأستاذ فرحاً مسروراً بهذا التيسير في تقديم الاختبارين النظري والتحريري في يوم واحد.

ومع هذا، فقد وُجد من بين عناصر الأمن الذين كانوا يصحبوننا إلى الجامعة من لا يتمتع بلباقة وجميل تصرف معنا، وأذكر مرة أن أحدهم وضع القيد في يدي، ولم يطلقه إلا وأنا على مقعد الاختبار داخل القاعة، ولم يسمح لي يومها بمقابلة والدتي، وكان يحدثني بطريقة غير لبقة، وينظر إلي وكأنني مجرم حرب، أو سفاك دماء، وكان هذا يشكل الاستثناء من عناصر الأمن الجنائي، الذين كانوا يرافقوننا إلى الجامعة لتقديم الاختبارات.

سار الأمر على هذا المنوال في الفصلين الأول والثاني من السنة الأولى، والفصل الأول من السنة الثانية في الجامعة، ثم كنت قد أنهيت مدة حكمي، وأُعدت ثانية إلى سجن الشيخ حسن، حيث لم يُسمح لي هناك بمتابعة دراستي الجامعية، ولا حتى باقتناء المقررات الدراسية الجامعية.

كانت إدارة سجن القلعة تفرض علينا بين الحين والآخر بعض التضييق والتشديد، كمنع زيارة الأهل لذويهم، وغالباً ما يكون هذا عندما تضبط إدارة السجن أشياء ممنوعة، كالمخدرات ونحوها مما يتعاطه عادة سجناء السوء. وأذكر مرة أن إدارة السجن منعت الزيارة عنا، ولم يسمحوا بالزيارة إلا لبعض السجناء الوجهاء، وصادف أن أمي وأختي إيمان في ذلك اليوم جاءتا إلى السجن محمَّلتين بالطعام وحاجات أخرى، وفوجئتا بمنعهما من زيارتنا، وظلتا واقفتين على باب السجن إلى أن سنحت فرصة، دفعت فيها أمي أختي إيمان داخل باب السجن –وكانت أختي إيمان في ذلك الحين لم تتجاوز العشر سنين من عمرها– وهي محمَّلة بكيسين في يديها، وما إن جاوزت قنطرة باب السجن المزدحم بالناس بمترين أو ثلاثة باتجاه المكان الذي كنت أقف فيه مع والدي إلا وأحد السجانين يمسك بيد أختي، ويدفع بها خارج باب السجن بما

تحمله معها من أغراض. وقد أثر هذا الموقف في نفسي كثيراً، وفي الوقت نفسه أكبرت ما تفعله أمي وأختي من أجل تأمين ما نحتاجه من طعام ولباس وأمور أُخر؛ حيث إن والدي –رحمه الله– كان لا يرد أحداً يطلب منه حاجة من خارج السجن، وخاصة السجناء الذين كانوا من محافظات غير محافظة دمشق، لمشقة مجيء أهلهم إليهم بين الحين والآخر، فكان والدي –رحمه الله– يكلف أمي بإحضار ما يوصيه به بعض السجناء.

محكمة أمن الدولة

بعد مرور ما يقرب من ستة أشهر أو يزيد على انتقالنا إلى سجن القلعة المركزي، أُحضرت مع والدي وأخي رضوان وآخرين إلى محكمة أمن الدولة بمنطقة السبع بحرات بدمشق، وكان من شأن تلك المحكمة أن تعقد جلساتها يوم الثلاثاء؛ لتنظر في الملفات المرفوعة إليها. وكانت العادة أن تأتي دورية من الشرطة العسكرية ذوي السمعة السيئة، فيصطحبون من كانت عنده محكمة. وذهبنا أول مرة أنا ووالدي وأخي رضوان، وتم وضعنا في قفص الاتهام، ووُجِّهت التهم إلينا، وكان رئيس المحكمة فايز النوري، وهو من دير الزور، وكان ذا سمعة قضائية سيئة، وسمعت أن الإخوان المسلمين حاولوا اغتياله مرة، لكن لم تنجح محاولة اغتياله، وبقي متربعاً على عرش محكمة أمن الدولة طيلة الأزمة التي مرت بها سوريا في حقبة الثمانيات من القرن العشرين.

لم أعد أذكر تماماً ماذا سألني، لكن ربما طلب مني أن أقص عليه الذي جرى، وكذلك كان الأمر بالنسبة لوالدي، وغالب الظن أنه لم يوجه أي سؤال لأخي رضوان، وربما كان حاضراً يومئذ خارج المحكمة جدي محمود حامد (أبو ياسين)[1] -رحمه الله- ثم إن جدي وبترتيب مع والدتي، وكَّل محاميًّا للدفاع عنا، وكنت أعتقد أن توكيل المحامي أمر شكلي ليس إلا، وإلا فإن الاتهامات جاهزة على المقاس، والأحكام جاهزة بحسب المقام، والأمر لا يعدو كونه مجرد تمثيلية لإعطاء صفة قانونية لمحاكمتنا، ولا أستبعد أن يكون المحامي قد أسهم فيما بعد بإخراج أخي رضوان من السجن بسند كفالة، وغالب الظن أن الأمر كذلك؛ علماً أن أخي رضوان لم يكن في العير ولا في النفير.

استمرت جلسات المحكمة مدة عام تقريباً، كان يفصل بين الجلسة والأخرى ما يزيد عن الشهر، وأذكر مرة وأنا أستعد للذهاب إلى إحدى جلسات المحاكمة، وكان رفقتي أخي رضوان، سألني عنصر من العناصر المكلفة بنقلنا إلى المحكمة عن سبب اعتقالي، فضايقني سؤاله: وقلت له: أنت مهمتك أن تنقلني إلى المحكمة أم مهمتك أن تحقق معي؟ قلت هذا بشيء من (العنترية) والارتجال، لكن في الداخل كان الرعب قد تملك جميع أجزائي، بيد أنني تمالكت نفسي، واكتفى الشرطي بالقول: بعد أن نعود من المحكمة سوف يكون حسابك، لكن يبدو أن الشرطي لم يكن من ذوي النفوس الحاقدة، فعدت ولم يمسسني بسوء، وقد أكبر فيَّ أخي رضوان ذلك الموقف (العنتري)، وربما قال لي فيما بعد: كيف قلت للشرطي ما قلت، فلم أجيبه بشيء، ولم يدر ذلك المسكين أن الرعب كان قد تملكني من غير أن يظهر على جوارحي،

[1] يشار هنا إلى أن جدي المذكور -رحمه الله- كان قد تأثر كثيراً لما جرى لنا، ورأيت أكثر من مرة الدموع في عينيه في أثناء زيارته لنا في سجن القلعة، وقد بذل جهداً غير قليل بداية اعتقالنا في البحث والسؤال عنا، وكانت الأجهزة الأمنية الأسدية قد هددته في إحدى المرات بالاعتقال والالتحاق بنا، إن هو عاود السؤال والبحث عنا!!

فقضي الموقف على النحو الذي ذكرته.

بعد نحو من شهرين تقريباً من حضورنا أول محكمة، وتحديداً في يوم الأربعاء السابع عشر من شهر أيار/مايو سنة إحدى وثمانين وتسعمائة وألف للميلاد، وفي حدود الساعة الثانية بعد الظهر، أذيع اسم أخي رضوان عبر إذاعة السجن، ووصلت الأخبار أنه سيُفرج عنه بسند كفالة، وكان والدي يومها يقرأ الصفحة التي تبدأ بقوله سبحانه: ﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب﴾ (غافر:١٧) وكان والدي عندما أذيع اسم أخي جالساً في المكان المخصص للصلاة في ساحة السجن، وكان لتوه قد أنهى الدرس الذي يلقيه يومياً بعد صلاة الظهر مباشرة.

كانت أوامر الأجهزة الأمنية تقتضي إعادة وتسليم كل سجين اعتقل من قِبَل أجهزة الأمن، وبرأته المحكمة، أو أنهى مدة محكوميته إلى الفرع الأمني الذي اعتقله، وأحاله على المحكمة، ورأيت حالات عديدة جرى لها ما ذكرت، وذهب الظن بي أن أخي رضوان سيسلمه سجن القلعة المركزي إلى فرع الأمن السياسي لينظر في أمره، إما أن يُطلق سراحه، وإما أن يجدد توقيفه احترازيًّا، بموجب قانون الطوارئ الساري المفعول إلى الأبد كما هو الشأن في نظام الأسد! بيد أن الأمر جرى على غير ما كان متوقعاً؛ إذ في اليوم التالي مباشرة ليوم الإفراج عن أخي رضوان، فوجئت بأخي رضوان قادم مع أمي وخالي سمير لزيارتنا في السجن، وكان مرتدياً بدلة جديدة، وكأنه على موعد مع عروسه، فاجأني ذلك الموقف، ولم أجد له تفسيراً، إلا أن يكون الأمر من باب التوفيق الإلهي، فحمدت الله على ذلك. ثم في قابل الأيام وقفت على عبارة لمالك بن نبي –رحمه الله– فسرت لي هذا الذي جرى، ونص العبارة يقول: (القدر يُمهد سُبُلُه بطريقة غير مفهومة أحياناً، تحير العقول والخواطر)[1] هذه العبارة فسرت لي ما جرى، وأراحتني غاية الراحة في فهم وتفسير الأمر.

ومما أذكره هنا أنه في إحدى جلسات المحكمة أُستدعي رجلان من رجال الإطفاء –وربما أكثر– من الذين حضروا مع سيارة الإطفاء عند وقوع الحادث، وكانت من بين التهم الموجهة إلينا، فضلاً عن أننا نقوم بأعمال مناهضة لمبادئ ثورة الثامن من آذار، أقول: كانت من بين التهم الموجهة إلينا تهمة منع رجال الإطفاء من ممارسة مهامهم في إخماد الحريق؛ لأن الذي اتصل بهم من الجيران –وأحسب أنه الجار الذي كان يسكن في الشقة التي فوق شقتنا، وكان رافضيًّا[2]– أخبرهم بأن ثمة حريقاً في حديقة الشقة التي تحت

---

[1] ذكر مالك بن نبي المفكر الجزائري هذه العبارة في كتابه الظاهرة القرآنية.

[2] أغلب الروايات تشير إلى أن هذا الشخص –وكان يكنى بأبي عدنان– هو الذي اتصل بالجهات الأمنية والإطفاء. وسمعت من أقاربي أن والدتي كانت تدعو عليه كثيراً بعد اعتقالنا، وبالفعل فقد فطس هذا الرجل بعد وقت قصير من اعتقلنا.

شقته. ثم بدأت الجلسة لسماع أقوال الشهود[1]، وكان الشهود قد وُضِعوا في غرفة خارج قاعة المحكمة، ثم أُستدعي الشاهد الأول، وسأله القاضي عن مجريات ما حدث، فأخبره أنه بالفعل قد واجهوا ممانعة عند دخول البيت، بمعنى أن هذا الشاهد شهد ضدنا، أو بمعنى أصح شهد بما جرى فعلاً، علماً أنني لم أكن قاصداً لمنعهم من الدخول، بل غاية ما في الأمر أنني أخبرتهم أن الأمر بحسب تقديري كان لا يحتاج إلى دخول رجاء الإطفاء؛ لأنه لا يوجد حريق أصلاً. ثم أُستدعي الشاهد الثاني وسئل عما جرى، فلم يذكر أي ممانعة جرت لهم، بل ذكر أن الأمر كان عاديًّا، وأحسب أن هذا الشاهد كن متعاطفاً معنا، أو ربما كان من رجال الإطفاء الذي وصلوا إلى البيت بعد دخول الدفعة الأولى من رجال الإطفاء، ثم فُضَّت الجلسة.

قبل موعد جلسة إصدار الحكم، وتحديداً خلال شهر شباط/فبراير سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة وألف جرت أحداث مدينة حماة، وكانت الأخبار عن حقيقة ما يجري قليلة وشحيحة، بسبب التعتيم الإعلامي الذي فرضه نظام الأسد، ناهيك أننا كنا في السجن، فكان التعتيم مضاعفاً، لكن وصل لأسماعنا أن أمراً جَلَلاً يجري في مدينة حماة، ثم في قابل الأيام بدأت تتضح حقيقة المأساة التي نزلت بتلك المدينة الجريحة.

توالت جلسات المحاكمة، وبعد مرور سنة كاملة على بدء محاكمتنا، وتحديداً في الثلاثين من شهر آذار/مارس سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة وألف، حُدِّدت الجلسة النهائية للنطق بالحكم، ونُقلنا إلى المحكمة كالمعتاد، وحضر أخي رضوان من خارج المحكمة، وأحسب أن جدي أبا ياسين -رحمه الله- وأمي كانا واقفين خارج المحكمة، ينتظرون حكم القاضي (العادل). بعد أن أخذ القاضي مكانه على المنصة قرأ نص الحكم، مبتدئاً قراءة قرار المحكمة بقوله: (باسم الشعب حكمت المحكمة على...) وبالتأكيد كان في ثنايا هذا الحكم عبارة تقول: (القيام بأعمال مناهضة لمبادئ ثورة الثامن من آذار)!!! كانت الأحكام التي تلاها القاضي، كالتالي:

أولاً: براءة أخي رضوان من أي تهمة موجهة إليه.

ثانيًّا: الحكم علي لمدة ثلاث سنوات بتهمة كتم معلومات تضر بأمن الدولة.

ثالثاً: الحكم على والدي لمدة عشر سنوات بسبب مشاركته في أعمال (خراطة الخشبة) تخل بأمن الدولة، وتزعزع استقرارها!

[1] يشار هنا إلى أن أخي رضوان بعد أن حُلي سبيله كان يحضر معنا جلسات المحاكمة؛ لأن الإفراج عنه كان بسند كفالة، بمعنى أنه لم يُبَتَّ بحكمه بعد، وكان يجلس على المقاعد المخصصة في الأساس للجمهور، ولا يدخل معنا قفص الاتهام، لكن لا جمهور ولا هم يحزنون، والجمهور عناصر الشرطة العسكرية فحسب، وناهيك بمحاكمة قاضيها فايز النوري، وجمهورها ذوو القبعات الحمر!

رابعاً: الحكم على أخي عزت غيابيًّا لمدة خمسة عشر عاماً بتهمة تصنيع مواد متفجرة بقصد استخدامها ضد الدولة، والحكم نفسه صدر بحق زميله مازن خان.

انتهت الجلسة بعد النطق بالأحكام، وأذكر أنه بعد النطق بالحكم بحقي وحق والدي أخذ أخي رضوان بالبكاء، ثم سلَّم الأمر إلى الله، وغادر قاعة المحكمة كئيباً حزيناً. وفي طريق العودة إلى السجن كنت حزينًا أشد الحزن على والدي، كيف سيمضي مدة الحكم في هذا المكان، وأمامه ثمان سنين، لكن سلمنا الأمر إلى الله، وقلت في نفسي: لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً، وعندما دخلنا السجن استقبلنا رفاق السجن بالمواساة والحزن والحسرة، وأخذوا في تصبيرنا والتخفيف عنا بما يسره الله لهم من وسائل التخفيف.

انتهاء فترة الحكم

كان أمامي بعد صدور الحكم سنة كاملة بالتمام والكمال، فتقبلت الأمر، ووطنت نفسي على أن أعيش في السجن حياة طبيعية، وكأن شيئاً لم يكن، وبالفعل تابعت دارستي الجامعية، إضافة إلى عكوفي على القراءة والمطالعة بما وقع بين يدي من كتب إسلامية، فكنت أمضي معظم وقتي في القراءة، ولا يحضرني أمر ذي بال خلال فترة ما بعد صدور الحكم سوى أن معنوياتي كانت عالية، واعتمادي على الله كان يقوى ويزداد.

مضت السنة الثالثة من السجن سريعة، وأزف يوم الخروج، وكنت أتوقع أنه لن يتم الإفراج عني مباشرة من سجن القلعة، كما كان الحال مع أخي رضوان، بل سأُرسل إلى فرع الأمن السياسي، ثم يُطلق سراحي من هناك خلال يوم أو يومين، هكذا بدا لي الأمر أنه سيكون، وهذا ما وطنت نفسي والدتي عليه عندما اقترب وقت انتهاء مدة الحكم.

بيد أن الأمور نحت منحى آخر؛ وذلك أنني يوم انتهاء الحكم، وفي حدود عصر ذلك اليوم، ودعت والدي ورفاق السجن على أمل أن أزورهم قريباً كزائر من خارج السجن، ثم أقلتني سيارة من السجن، ولم أعد أذكر فيما إذا كانت سيارة خاصة بسجن القلعة المركزي، أم كانت سيارة تابعة لأجهزة الأمن، وكان الظن بي أني ذاهب إلى فرع الأمن السياسي، وكان هذا الفرع قد انتقل إلى مقره الجديد في منطقة الجبة بمنطقة الشيخ محيي الدين بن عربي، لكنني وجدت نفسي في فرع الأمن العسكري في منطقة الجمارك، وهذا الفرع كان ذا سمعة سيئة، وأغلب المتهمين يحالون إليه، ويأتون إلى سجن القلعة عن طريقه، فدخلت الفرع، وبالطبع كنت مقيداً، وغرف هذا الفرع كلها تحت الأرض، دخلت وطُلب مني الوقوف ووجهي إلى جدار إحدى ممرات هذا الفرع، ولا أخفي أنه انتابتني حالة من الخوف من هذا المكان لكثرة ما سمعت عنه.

ومما أذكره هنا أنني وأنا واقف ووجهي إلى جدار إحدى الممرات، مرَّ أحد زبانية السجن، وربما شعر أنني أردد شيئاً من الأذكار، فطلب مني بأسلوب سمج أن أتوقف عما أردده، طلب مني ذلك، ووجهه يقدح ناراً وشراراً. وبعد التفتيش في سجلات هذا السجن، تبين لهم أنه لا سِجِّل لي عندهم، ومن ثم لم تقبل إدارة الفرع باستلامي، وطلبوا من العناصر المرافقة لي إعادتي إلى حيث أتيت.

ومَرَدُّ الخطأ هنا إلى إدارة سجن القلعة؛ إذ أنها لم تراجع سجلاتها لتعلم الجهة التي اعتقلتني بداية، وأيضاً لأن أكثر السجناء السياسيين الذين كانوا في سجن القلعة إنما تم تحويلهم إلى سجن القلعة المركزي من قِبل فرع الأمن العسكري، ومن هنا ظنت إدارة السجن أنني معتقل من قِبَل فرع الأمن العسكري، فتم تحويلي إليه بعد انتهاء مدة حكمي. المهم تمت إعادتي إلى السجن بعد أن مررت بساعات عصيبة، ودخلت إلى المهجع مع وقت العشاء أو بعده بقليل، وقد أخذت الجميع الدهشة من رؤيتي أعود ثانية،

بعد أن ظنوا أنني سآتيهم زائراً بعد يوم أو يومين، وبالطبع تم سؤالي عن الذي جرى، فأخبرتهم بالأمر، وبت ليلتي هناك.

في صباح اليوم التالي دُعيت إلى غرفة إدارة السجن، وقابلني مدير السجن، وسألني عن الجهة التي اعتقلتني وأحالتني إلى المحكمة، فأخبرته بالأمر، ثم أرسلني مع دورية إلى فرع الأمن السياسي في منطقة الجبة، ووصلت إليه مع ظهر ذلك اليوم الحادي والثلاثين من شهر آذار/مارس سنة ثلاثة وثمانين وتسعمائة وألف، وسُلِّمت إلى إدارة الفرع، ثم استدعاني مساعد معروف هناك، يكنى بأبي يزدجير، ويعرف القضية التي اعتقلت من أجلها، وأول ما سألني عنه أخي عزت، هل من خبر عنه؟ فأخبرته أني لا أعلم عن أمره شيئاً، وحقيقة الأمر كانت كذلك، فقال لي كلاماً حاصله: مهما طال الزمن ولو بعد خمسة عاماً، لا بد أن نمسك بأخيك، ثم سألني عن مدة الحكم التي حُكمت بها، وسألني عن مدة حكم والدي، وكان ينظر إلي بعنيين ملؤهما الحقد والانتقام، وكان في تلك الأثناء قد مضى على دخول وقت الظهر نحو الساعتين، ووقت العصر غير بعيد، فسألته فيما إذا كان بإمكاني أن أصلي الظهر، فاستغرب من سؤال واندهش، وقال: بالطبع يمكنك أداء الصلاة، ومن قال لك: إننا نمنع الصلاة!؟

في حدود وقت العصر من ذلك اليوم أُرسلت بسيارة الأمن السياسي إلى سجن الشيخ حسن، فدخلت السجن، وكنت أحسب أنني سأبيت يوماً، أو بضعة أيام، ثم يُطلق سراحي، بيد أن الأمر جرى على غير ذلك. المهم أنني لبثت في سجن الشيخ حسن إلى منتصف سنة خمس وثمانين وتسعمائة وألف، فكان مجموع المدة الثانية ما يقرب من سنتين ونصف السنة تقريباً، وقد حفلت هذه الفترة بالعديد من الأحداث سواء في داخل السجن أم خارجه، وفيما يلي أذكر ما يحضرني من أحداث تلك الفترة:

العودة ثانية إلى سجن الشيخ حسن

وُضعت بداية في زنزانة منفردة في الطابق العلوي من السجن، وقد جاءني يوماً ضابط برتبة نقيب، وهو من منطقة السلمية التابعة لمحافظة حماه، وسمعت أن أغلب سكانها من الطائفة الإسماعيلية، كان هذا الضابط قد أشرف على تحقيقي في بداية اعتقالي، وكنت عموماً أرتاح إليه بالنظر إلى غيره من الضباط الأمنيين، وكنت ألمح في عينيه شيئاً من العطف نحوي، وقف الضابط أمام باب زنزانتي، وطرح علي بعض الأسئلة، تتعلق بالمكان الذي أمضيت فيه مدة حكمي، وكم المدة التي حكمتها، وبالطبع سألني عن أخي عزت، وكنت أحدثه وأجيبه عن أسألته من غير خوف أو قلق، وبعد أن أنهى أسألته، وهمَّ بالذهاب، قلت له: لماذا أنا موقوف هنا؟ ألم تنتهِ مدة حكمي؟ ألا يجب من الناحية القانونية أن يُخَّلى سبيلي؟ فأجابني بكل برودة: صحيح أنك أنهيت مدة حكمك، لكنك الآن موقوف عرفيًّا من جديد! فتعجبت لجوابه، وعلمت أن الأمر لم ينتهِ بعد، وأنني بين يدي أناس لا يرعون قانوناً، ولا يحترمون إنساناً.

وفي إحدى المرات كان الضابط نفسه يقوم بجولة تفقدية على السجناء، فتوقف قليلاً أمام باب زنزانتي، وبعد أن سألني عن أحوالي، تجرأت وسألته فيما إذا كان بإمكاني أن أقتني مصحفاً، فلم يرق له سؤالي، ومن ثَم أجابني بالنفي. وربما سألته أيضاً فيما إذا كان بإمكاني أن أتابع دارستي الجامعية كما كنت أفعل في سجن القلعة المركزي، فأجابني بأن هذا الأمر غير ممكن، وأن الوضع هنا يختلف عن الوضع في السجن المدني.

جلست مدة أحسب أنها غير طويلة، ثم تم نقلي إلى الغرفة الجماعية، كان يوجد في تلك الغرفة شباب ذوو اتجاه ماركسي، أكثرهم طلبة في الجامعة، كانوا ينتمون لما يسمى بـ (اللجان الشعبية) وكان أكثرهم من الطائفة الدرزية والنصيرية، وكانوا على العموم ينظرون إلى أصحاب التوجهات الإسلامية نظرة سلبية، ولا يقصرون في اللمز والطعن بالإسلام والمسلمين، وبين الحين والآخر كانت تصدر عن بعضهم ألفاظ سب الدين، ونحو ذلك من السلوكيات المزعجة والتصرفات المثيرة للغضب، كنا نحن المسلمين أقل منهم عدداً، وكنا نصلي في المهجع جماعة، وهم من ورائنا يضحكون ويلعبون ويستمعون للمذياع، وكنا نحن المسلمين نحاول قدر المستطاع أن لا ندخل في خصام أو نزاع معهم.

كان معي في الغرفة الجماعية شباب من جماعة مسجد زيد بن ثابت من حي الميدان، وهو حي كان مشهوداً لرجاله بالقوة والشهامة، أذكر أنهم كانوا في سجن تدمر أولاً، ثم أعيدوا إلى سجن الشيخ حسن، وكان من بينهم أخ، لم أعد أذكر اسمه، حافظاً لكتاب الله، فكنت بين الحين والآخر أتدارس معه القرآن، وقد انتفعت به، فجزاه الله كل خير، كنا نمضي أكثر أواقتنا في مراجعة القرآن حفظاً وتحفيظاً، إضافة إلى أننا كنا نطالع الصحف السورية الرسمية التي سُمح لنا بإدخالها.

بعد مضي عام من عودتي إلى سجن الشيخ حسن، وفي ليلة من الليالي طرق سمعنا صوت إطلاق نيران كثيفة خارج السجن، فانتابنا الرعب والفزع، ولم نكن ندر حقيقة ما كان يجري، ثم علمنا فيما بعد أن سبب هذه النيران كان تماثل الرئيس حافظ الأسد للشفاء، بعد أن ألم به مرض كاد يودي بحياته، بعد يوم أو يومين من هذا الذي جرى، تمَّ استدعاء الأشخاص المنتهية أحكامهم، وأكثرهم من ذوي الاتجاه الإسلامين، أو على الأقل محسوبين عليه، وكنت واحداً منهم، وكان مجموع عددنا تسعة أشخاص، كلنا قد أنهى مدة حكمه، وينتظر الإفراج عنه، تم استدعاء كل واحد منا على انفراد، وقابلني الضابط المذكور آنفاً، وسألني عن مدى استعدادي للتعاون مع أجهزة الأمن في حال تم الإفراج عني، وبالطبع سألني عن استعدادي للإخبار عن أخي فيما لو علمت من أمره شيئاً، وسألني أسئلة أخرى لم أعد أذكرها، فأجابته بالإيجاب، وأنني على استعداد للإخبار عن كل ما يمس بأمن الدولة، ثم طلب مني العودة إلى الغرفة الجماعية. وتمت مقابلة باقي الإخوة الذين كانوا معي، ووجَّه لهم الضابط من الأسئلة نحو ما وجه إلي.

وأذكر أن تلك المقابلة جرت يوم اثنين، وفي يوم الاثنين من الأسبوع التالي وفي حدود الساعة العاشرة صباحاً نودي على شخص من الأشخاص الذين تمت مقابلتهم، وأُخبر بأن يجمع أغراضه، استعداداً للخروج من السجن، فاستبشرنا بذلك خيراً، وعلمنا أن تلك المقابلة كان الغرض منها تهيئتنا لإطلاق سراحنا، وهكذا سارت الأمور كل يوم اثنين من كل أسبوع، يُنادى على واحد من الذين تمت مقابلتهم إلى أن مضت ثمانية أسابيع، أطلق خلالها جميع الأشخاص الذين تمت مقابلتهم، ولم يبق إلا أنا، فقلت في نفسي: جاء دوري، وسُيفرج عني في الأسبوع القادم إن شاء الله تعالى، وكل من كان معي في السجن كان يخاطبني على أساس أنني سأخرج يوم الاثنين من الأسبوع القادم، وقمت بتوزيع ما أملكه من متاع على رفاقي في السجن، وأخذ كل واحد منهم يحملني رسالة شفوية طالباً مني أن أوصلها إلى ذويه.

واستقبلت يوم الاثنين الموعود فرحاً مسروراً؛ لأنني على موعد مع الفرج، وهل السجين يفكر في غير الفرج؟ تناولت طعام الفطور مع رفاقي في حدود الساعة التاسعة، وكان الفطور يومئذ –إن لم تخني الذاكرة– فتة حمص بالسمنة، وكنت في أثناء تناولي للفطر أرقب باب الغرفة الجماعية منتظراً مجيء السجان ليخبرني بالاستعداد لمغادرة هذا السجن وإطلاق سبيلي. أنهيت الفطور، وجلست مع رفاقي نتبادل أطراف الحديث، وكانت الساعة قد جاوزت العاشرة، ثم جاءت الساعة الحادية عشرة، ولا شيء يذكر، وخرجنا إلى التنفس وعدنا في حدود وقت الظهر ولا جديد في الأمر، بعد أن دخل وقت الظهر، بدأ القلق يساورني، وانتابتني حالة نفسية كئيبة. وأخذ رفاقي في السجن يخففون عني، ويواسونني بعد أن شعروا ما ألم بي من حزن وانزعاج.

مضى يوم الاثنين وأنا في حالة لا أحسد عليها، واستسلمت للنوم، وقلت في نفسي لعل الله يحدث أمراً يوم غدٍ، فجاء اليوم التالي، ومضى كغيره من الأيام، ثم قلت في نفسي لعل يوم الاثنين من الأسبوع

القادم يحدث شيء بخصوصي، وجاء يوم الاثنين ومضى كغيره من الأيام، فعلمت أن في الأمر شيئاً، وأمضيت بعدُ أياماً صعبة وعصيبة، وكانت نظرات رفاقي في السجن إليَّ نظرات غريبة، ومشفقة في الوقت نفسه، ثم استسلمت لأمر الله، وازددت يقيناً أن الأمر لله، وأن وقت الإفراج عني لم يحن بعد.

بعد أيام قليلة كان الضابط النقيب يقوم بجولة تفقدية في السجن، فربما أنا طلبت مقابلته، أو ربما التقيته صدفة في ساحة التنفس، فسألته عن سبب عدم إطلاق سراحي من السجن كباقي رفاقي المحكوم عليهم، فأجابني أنه لا علم له بالأمر، وأنه ظن أنني خرجت من السجن مع الذين خرجوا.

وطنت نفسي على ما كان من أمري، وأخذت أمارس حياتي الطبيعية في السجن، من مراجعة للقرآن، وممارسة لقليل من الرياضة، وقراءة بعض الصحف المحلية. ثم إنه ضاقت بي الحياة في الغرفة الجماعية، فطلبت من إدارة السجن نقلي إلى الزنزانة المنفردة، فاستجابوا لطلبي. ومما أذكره في تلك الفترة ولا أنساه، أنه في يوم من الأيام استدعاني رئيس النوبة (أبو عيد) وكان غالباً ما يستدعيني لأنظف له غرفة مكتبه، وساحة السجن، غير أنه هذه المرة أدخلني إلى الغرفة الصغيرة المُعَدَّة لتأديب عناصر الأمن. دخلت الغرفة معه فوجدتها مليئة بالكتب الإسلامية، والكتب ملقاة في نواحي الغرفة ذات اليمين وذات الشمال، قال لي رئيس النوبة: أريد منك ترتيب وضع الكتب في هذه الغرفة، فقلت له: حسناً سأفعل، وبدأت أحمل بعض الكتب، وأضع بعضها فوق بعض، كان أغلبها من الكتب الممنوعة التداول في دولة البعث العربي الاشتراكي، في الدولة التي تحمل لواء العروبة، وتحمل شعار المقاومة، وترفع شعار: سوريا قلب العروبة النابض. كانت كتب سيد قطب –رحمه الله– تتصدر أسماء الكتب الموجودة في هذه الغرفة، بدأت عملي، ورئيس النوبة يرقبني ويراقبني، وكان بين الحين والآخر يذهب لشأنه ثم يعود على عجل، وفي أثناء القيام بما طلبه مني راودتني نفسي أن أطلب منه أن يسمح لي بأخذ كتاب من هذه الكتب، ولست أذكر فيما إذ كنت قد فعلت ذلك أم لم أفعله، لكن ما أذكره تماماً أنه في أثناء عملي وضعت بمكان ما في جانب الغرفة بعض الكتب التي كنت أنوي أن آخذها بشكل أو بآخر.

كانت في الغرفة نافذة صغيرة مرتفعة، تطل على ساحة التنفس، فقلت في نفسي: إذا وضعت بعض الكتيّبات أو الكتب الخفيفة الحجم على حافة هذه النافذة، يمكنني في اليوم التالي أن آخذها، وأنا في أثناء قضاء فترة التنفس، وهكذا، فبينما كان رئيس النوبة خارج الغرفة، حملت كتابين أو ثلاثة من الحجم المتوسط، ووضعتهم على حافة النافذة، ثم تابعت عملي وكأن شيئاً لم يكن. وفي خطوة تالية، وأمام هذه المائدة الفكرية التي تحتوي على ما لذا وطاب من النتاج الفكري والعلمي، وجدتني على حين غفلة من رئيس النوبة، واضعاً لكتابين أو ثلاثة من الحجم الصغير داخل حزام شتوي كنت ألبسه تحت ملابسي، وكان من بين هذا الكتب التي دسستها تحت ملابسي كتاب "معالم في الطريق" للشهيد سيد قطب –رحمه الله–كنت حريصاً أشد الحرص على قراءة هذا الكتاب، لمعرفة ما فيه، وكنت سمعت من بعض الإخوة أن

ضبط هذا الكتاب مع أحد بمثابة ضبط بندقية، كما أن بعض أهل العلم ممن كانوا معنا في السجن، اسمه الشيخ (حسن خياطة) من مدينة حلب، كانت لديه مكتبة قرب قلعة حلب يتكسب منها، أقول: كنت وهذا الشيخ متجاورين في الغرفة الجماعية، وكان الشيخ على درجة من العلم، وقد حدثني يوماً أنه قرأ كتاب "معالم في الطريق" نحو خمسين مرة، كل هذا جعلني أتشوق لمعرفة ما في هذا الكتاب، وبالتالي ما دفعني إلى هذه المغامرة، فوضعته تحت ملابسي على حين غفلة من رئيس النوبة، علماً أن رئيس النوبة أول ما أدخلني الغرفة، وطلب مني ترتيب ما تحتويه من كتب، قال لي: سوف أفتشك عندما تخرج من الغرفة، أقول: على الرغم من هذا الإنذار، فقد غامرت، وخبأت كتابين أو ثلاثة، وخرجت من الغرفة بعد أن رتبت ما فيها من كتب من غير أن يفتشني رئيس النوبة، ومضت الأمور على خير، فحمدت الله على ذلك.

في اليوم التالي وعند خروجي إلى فسحة التنفس، ألقيت نظرة على الكتب على وضعتها على حافة النافذة، فلم أبصر بشيء، فعلمت أن أحداً من السجانين قد اكتشف أمرهم، وأعادهم إلى داخل الغرفة.

كنت مغتبطاً بما حملته معي من كتب، أولاً: لأنني مولع بالقراءة عموماً. وثانياً: لأنني شغوف أن أعرف ما في مضمون كتاب "معالم في الطريق". أطلعت الشيخ حسن خياطة على ما قمت به، وأخبرته أنه إذا كان يرغب بقراءة كتاب "المعالم" فبإمكانه فعل ذلك، كما كان معنا في الغرفة نفسها أخ عزيز من مدينة اللاذقية من مدينة سلمى تحديداً، اسمه نورس الحجي، وهو من خيرة شباب اللاذقية فيما عرفت، كان يدرس الهندسة عندما اعتقل، وكان حافظاً لكتاب الله، كنا نراجع القرآن معاً، كل منا يقرأ خمس صفحات، ومع نهاية كل ختمة نتبادل صفحات القراءة واستمر بنا الحال كذلك إلى أن أُفرج عنه بعد أن انتقلنا إلى سجن عدرا.

أخبرت الأخ نورس بأمر الكتاب فتشوق لقراءته، ورتبنا الأمر بحيث كل منا نحن الثلاثة نتناوب قراءة هذا الكتاب في أوقات محددة، علماً أن القراءة ينبغي أن تكون على غفلة من الناس، وكنا حريصين أشد الحرص على أن لا يعلم بأمر الكتاب أحد؛ لأن الكتاب لو ضبط فإن العاقبة ستكون غير حميدة.

كان من عادتنا عند قراءة هذا الكتاب أن نجلس مسندين أظهرنا إلى حائط الغرفة (المهجع) ممسكين بصحيفة من الصحف المحلية المسموح بها، نخفي بها الكتاب، وقد قرأت الكتاب كاملاً، وأعدت قراءته ثانية وربما ثالثة، وكتبت على ورقة خارجية العديد من الفقرات وشرعت بحفظها، فحفظتها وكنت أراجعها يوميًّا إلى أن انتقلتُ إلى سجن عدرا المركزي، فتوقفت عن مراجعتها، ثم ضاع أكثرها من ذاكرتي.

كانت العادة في فترة من الفترات في سجن الشيخ حسن أن نخرج مرتين لفسحة التنفس، واحدة في حدود التاسعة صباحاً إلى الحادية عشرة قبيل الظهر بقليل، وكانت الفترة الثانية بعد العصر في حدود الرابعة إلى الخامسة والنصف. في يوم من الأيام خرج جميع من معي بالغرفة إلى ساحة التنفس، وبقيت في الغرفة

لوحدي طلباً لقراءة الكتاب، وجلست الجِلسة المعتادة للقراءة، وفي أثناء انهماكي بالقراءة سمعت صوتاً من ساحة التنفس يناديني باسمي، وكأن ذلك الصوت كان يريد أن ينبهني إلى أن أحد السجانين في طريقه إلى الغرفة، وبالفعل فوجئت بسجان من السجانين اللئام يدخل الغرفة على عجل، ثم أخذ يفتش أماكن السجناء، فتمالكت نفسي، ودسست الكتاب تحت ملابسي، وأظهرت أنني أقرأ بالصحيفة، والسجان يتابع التفتيش من مكان لآخر، وظننت عندما اقترب من مكان جلوسي أنه سيطلب مني أن أقف كي يفتش المكان الذي أجلس فيه، بيد أنه تجاوزني، ولم يطلب مني الوقوف ولا الخروج من الغرفة، وأنهى السجان تفتيش الغرفة، وخرج بعد أن مررت بفترة عصيبة، ولكن الله سلم ولطف.

ومرة أخرى كنت في الزنزانة المنفردة، وكنت طلبت الانتقال إليها بعد أن انتابني شيء من الضيق في الغرفة الجماعية (المهجع) أقول: كنت في تلك الزنزانة محتفظاً بكُتيِّب أو كُتيِّبين، كنت أحضرتهما معي من الغرفة التي طُلب مني ترتيبها. وجرى أن دخل السجن يوماً بعض السجناء الجدد ما دفع إدارة السجن إلى إخلاء الزنزانات لوضع السجناء الجدد فيها، وفجأة –ومن غير سابق إعلام– جاءني أحد السجانين وطلب مني إخلاء الزنزانة، وكنت قد خبأت الكتيبات تحت البطانية، وعندما خرجت من الزنزانة لم أتجرأ على حملهم تحت أعين السجان، وخرجت من الزنزانة، ونزلتُ إلى ساحة التنفس، ثم إن الغرفة وُضِع فيها سجين من السجناء الجدد، وخشيت أن يكتشف السجين الجديد أمر الكُتَيِّبات، ولم أستطع الصعود إلى الزنزانة لوجود السجان المراقب لحركة السجناء في فسحة التنفس، وظللت ألتمس غفلة السجان إلى أن سنحت لي فرصة على حين غفلة منه، فأسرعت بحركة خفيفة، وصعدت إلى الطابق العلوي، وفتحت نافذة باب زنزانة السجين الجديد، وطلبت منه أن يعطيني الكُتَيِّبات التي كانت تحت البطانية، والظاهر أن السجين لم يكن قد اكتشف أمر الكتب بعد، فرفع البطانية وأحضر لي الكُتَيِّبات، فدسستهم تحت ملابسي، وما هي إلا لحظات إلا ورأيت السجان يصعد الدرج، وكأنه استفقدني في ساحة التنفس، فسألني ماذا كنت أفعل هنا، فأخبرته أنني كنت أُريد أن أُحضر حاجة من الغرفة الجماعية، وقُضي الأمر على خير، ولم يكتشف السجان أمر الكتيبات.

بقيت هذه الكُتَيِّبات، ومعها كتاب "معالم في الطريق" بحوزتي إلى تاريخ انتقلنا إلى سجن عدرا منتصف سنة خمس وثمانين وتسعمائة وألف، فتركتهم في مكان في سجن الشيخ حسن، ولم أتجرأ على حملهما معي إلى سجن عدرا.

ومما يحضرني في هذه الفترة أنه في يوم من الأيام كان رئيس النوبة قد أخرجني على عادته لتنظيف ساحة السجن وغرفة الإدارة وغُرف أخرى، وأذكر أنني في أثناء تنظيف غرفة من الغرف وجدت على طاولة كانت في الغرفة كتاباً يحمل عنوان "الإخوان المسلمون: نشأة مشبوهة وتاريخ أسود" وكان الكتاب مؤلفاً من جزئين، وهو من تأليف مجموعة من المؤلفين يعملون في الإدارة السياسة، وعندما وقع نظري على

الكتاب، تمنيت لو كان بالإمكان قراءته؛ للوقوف على الكيفية التي يتم فيها تغيير الحقائق وتزيف التاريخ، وتضليل الناس، وكيف يصبح الشريف مجرماً، والمجرم شريفاً.

بقي ثمة أمور جرت لي خلال الفترة الثانية في سجن الشيخ حسن، أذكر منها أنه في يوم من الأيام – وكان قد مضى على وجودي في سجن الشيخ حسن بعد انتهاء حكمي ما يقرب من عام– أقول: في يوم من الأيام، وكان الوقت في حدود الواحدة بعد الظهر جاء أحد السجانين، وأخبرني أن أمي جاءت لزيارتي، وكانت الزيارة ممنوعة عن السجناء في سجن الشيخ حسن إلا من كان عنده واسطة من العيار القوي أو الثقيل، ففرحت لذلك، وقابلت أمي وكانت بصحبتها أختي إيمان، حيث كانت في بداية المرحلة الإعدادية من دراستها، أخذت أمي بالبكاء عندما رأتني، وسألتني عن صحتي وحالتي، فأخبرتها أن الأمور بخير، وكانت قد أحضرت معها بعض الأطعمة والحاجيات من الملابس، وزودتني ببعض النقود، ولم تستغرق الزيارة وقتاً طويلاً؛ إذ لم تتجاوز مدة الزيارة الربع ساعة على الأكثر، ثم فارقتني وقلبها يتفطر حزناً عليَّ. كانت هذه الزيارة هي الزيارة الوحيدة التي سُمح لأهلي بزيارتي. وقد علمت فيما بعد أن أمي حاولت مراراً وتكراراً أن تأتي لزيارتي، بيد أن محاولاتها كلها لم تنجح، سوى هذه الزيارة اليتيمة، وقد علمت بعدُ أنها كانت قد دفعت مبلغاً من المال من أجل أن يُسمح لها بزيارتي، كما أنها في مرة من المرات أرسلت إليَّ مبلغاً من المال مع بعض السجانين، فسلمني إياه، وكنت أشعر بتعاطفه نحوي، ومن المؤكد أنها قد دفعت لذلك السجان مبلغاً من المال كي يوصل إليَّ ذلك المبلغ.

ثم جاءت فترة من الفترات ضاق السجن بمن فيه، بحيث وصل عدد السجناء في الغرفة الجماعية إلى ما يزيد عن الأربعين سجيناً، وهذا العدد ضعف ما تتسع له الغرفة الجماعية، كان في السجن غرفتان جماعيتان (مهجعان) واحدة في الطابق السفلي، وواحدة في الطابق العلوي، أقمت في الجماعيتين في فترات مختلفة. وكان السجناء يقسمون من حيث توجهاتهم الفكرية إلى ثلاثة اتجاهات رئيسة: الأول: أصحاب التوجه الإسلامي، وكنت واحداً منهم، وكنت في نظر الاتجاهين الآخرين أنني من الإخوان، والواقع أنه لا انتماء لي إلى أي من الاتجاهات الإسلامية. الاتجاه الثاني البعثيون التابعون لبعث العراق، وكان أغلبهم من محافظة درعا. والاتجاه الثالث اللجان الشعبية، وكانوا ماركسي التوجه، ومعظمهم من الدروز والنُّصيرية.

كان الرأي عند أصحاب الاتجاهين الثاني والثالث الإعلان عن إضراب عن الطعام بقصد الضغط على إدارة السجن من أجل نقلنا إلى سجن أوسع، أما أصحاب الاتجاه الأول فلم يروا الانخراط في هذا الأمر، وكنت الوحيد من بينهم الذي أعلن الإضراب مع المضربين، وكان هذا الموقف مني موقفاً ارتجاليًّا عاطفيًّا أكثر منه موقفاً مبدئيًّا عقلانيًّا.

وكان من عادتي أن أستيقظ باكراً لأداء صلاة الفجر، وأن لا أنام بعد أداء الصلاة، بل أجلس

لمراجعة محفوظاتي من القرآن. وفي اليوم المقرر لبدء الإضراب، وبعد صلاة الفجر، كان كل من كان معي في المهجع لا يزال نائماً، أو ممن صلوا الفجر، ثم عادوا لمتابعة مسيرة نومهم النضالية، أقول: بعد أداء صلاة فجر ذلك اليوم تناولت كأساً من الحليب الساخن مع بعض الكعك، فكان ذلك عوناً لي على تحمل عناء ذلك اليوم الذي سيدخل فيه الإضراب حيّز التنفيذ.

كانت العادة أن يأتي السجان صباح كل يوم يسأل السجناء عما يطلبونه من طعام وشراب مما هو مسموح به، ويوم الإضراب جاء السجان على عادته سائلاً السجناء ما يطلبونه من الطعام، فأخبروه بأمر الإضراب، وأنهم لا يريدون طعاماً ولا شراباً، وطلبوا منه إبلاغ الإدارة بذلك. كان الجميع قد استيقظ ووجوههم كالحة مكفهرة؛ إذ كيف سيستقبلون اليوم من غير طعام ولا شراب! فحمدت الله أنني تناولت شيئاً من الطعام والشراب، كان عوناً لي على تحمل ما عانه غيري ممن أعلنوا الإضراب عن الطعام ذلك اليوم.

بعد ظهر ذلك اليوم بقليل جاء الضابط النقيب، وأخذ يقابل المضربين عن الطعام، كلاً على انفراد، وكان قد وُضِع في ساحة السجن الطعام المخصص للسجناء، الذي كان يُؤتى به من سجن القلعة. أخذ الضابط يقابل كل واحد من المضربين على حدة، سائلاً إياه عن سبب إضرابه، وعما إذا كان سيستمر في إضرابه، أم أنه سيُنهي الإضراب، فإن كان الجواب استمراره في الإضراب، أمر الضابط وضعه في الزنزانة المنفردة، وإن كان الجواب إنهاء الإضراب، فيؤمر بأخذ طعامه. وعندما جاء دوري سألني الضابط عن موقفي من الإضراب، وفيما أذكر كان فيما سألني أن قال لي: أنت مع الذين آمنوا، أم مع الذين كفروا؟ أو ربما قال لي: أنت مع أصحاب اليمين، أم مع أصحاب اليسار؟ فأخبرته أني مع الذين أعلنوا الإضراب عن الطعام، وبالطبع فقد كان الضابط مستغرباً نوعاً ما من موقفي؛ لأنني الوحيد من بين الإسلاميين، الذين أعلنوا الدخول في الإضراب، ثم أمر الضابط بحلق شعري على الصفر، ووضعي في زنزانة منفردة.

ثم جرت مفاوضات في مساء يوم الإضراب بين بعض الضباط ومنظمي الإضراب، وتم الاتفاق على تلبية مطالب السجناء، وبالفعل بعد فترة غير طويلة، تم نقلنا إلى سجن عدرا. هذا، ولا يفوتني في هذا السياق أن أذكر أمرين:

الأول: أن مشاركتي في الإضراب وعدم الرضوخ لمساومات ضابط الأمن، جعلني في أعين الاتجاهين: البعثي والماركسي أنني مناضل سياسي عريق، وأنني صاحب موقف مبدئي، وجعل الكل يحترمني، ويقدر موقفي معهم، وينظر إلي بعين الرضى والقبول، خاصة وأني الأقدم في دخول السجن ممن كانوا معي.

الثاني: أن عدم خروجي من السجن مع الذين أنعم الله عليهم بالخروج من رفاق السجن، فُسِّر هذا الموقف من قبل الاتجاهين الآخرين تفسيراً إيجابيًّا، من جهة أنني لم أُقدِّم تنازلات لأجهزة الأمن، وأنني

إنسان مبدئي، ومناضل سياسي ذو شأن ومكانة!!

هذان الأمران كان لهما أثر واضح في علاقتي مع هذين الاتجاهين في مستقبل أيامي في السجن، حيث كنت ألمس الاحترام والتقدير من قبل أصحاب هذين الاتجاهين. وأيضاً، فقد خفف هذا الأمران من التوتر والحساسية التي ما تكون عادة بين أصحاب الاتجاهات المختلفة.

وعلى العموم، فإن الفترة الثانية التي قضيتها في سجن الشيخ حسن استثمرتها في تثبت محفوظاتي من القرآن الكريم، وكان الأخ نورس الحجي من الأخوة الذين نفعني الله بمجالسته ومراجعة القرآن معه، كما كانت تلك الفترة مناسبة جيدة لقراءة ما وقع تحت يدي من كتب إسلامية، والاستفادة أيضاً من مجالسة الشيخ حسن خياطة وبعض الأخوة الآخرين الذين نفعني الله بهم، فجزى الله الجميع كل خير آمين، وأيضاً معاشرة أصحاب الاتجاهات غير الإسلامية، والوقوف على توجهاتهم ونمط تفكيرهم، وطرق حياتهم.

الانتقال إلى سجن عدرا

على إثر الإضراب الذي قام به أصحاب الاتجاهين: بعث العراق والماركسيون، وأنا أيضاً بفترة ليست طويلة، طلبت منا إدارة السجن أن نجهز أنفسنا للانتقال إلى مكان لم يحدد لنا، لكن كانت قبل مدة قد تسربت إلينا أخبار، مفادها أننا سننتقل إلى سجن عدرا. كانت أوامر إدارة السجن تقتضي أن لا نحمل معنا أيًّا من أغراضنا، بل نخرج بأنفسنا فحسب، وأخبرتنا الإدارة أنها ستُحضر جميع أغراضنا بعد فترة من انتقلنا، فاستجبنا لطلب الإدارة، فخرجنا بما علينا من الثياب، وتركنا ما كان في حوزتنا من أغراض في السجن بما في ذلك كتاب "معالم في الطريق" وكُتيّبات أُخرى قد أتيتُ على خبرها.

كان في حوزتنا في تلك الفترة نسخة من القرآن الكريم من الحجم الصغير، كان أدخلها لنا بعض عناصر السجن بشكل سري، وتبادلنا الرأي فيما بيننا من أجل حملها معنا أو تركها، فكان الرأي عند الأخ بسام الأشقر أن نأخذها معنا، وتكفل هو بحملها ضمن ملابسه الداخلية، ونزلنا إلى ساحة السجن، وصففنا بشكل طابور، وبدأ مساعد في الأمن السياسي يُدعى (الدودشتي)، كان معروفاً ببطشه وجبروته وحقده، وقد نلت من ببطشه في أثناء فترة التحقيق شيئاً غير قليل- بدأ المساعد بتفتيشنا من أعلانا إلى أسفلنا، وعندما وصل الدور إلى الأخ بسام، انتابني الخوف والقلق، ثم فتش الأخ بسام، ولم تصل يده إلى المكان الذي دس فيه الأخ بسام المصحف، وكان دسه في لباسه الداخلي السفلي، وحفظ الله كتابه من يد الظلمة أعداء الدين.

هذا، وقد كان سجناء سجن القلعة المركزي قد سبقونا بالانتقال إلى سجن عدرا، وكان والدي من ضمن الذين سبقونا إلى هذا السجن، ومن الذين نُقلوا أيضاً إلى هذا السجن جماعة النقابيين، بيد أنهم كانوا في جناح آخر، ولم يكن اللقاء بيننا متاحاً إلا من خلال نافذة كانت تتطل على ساحة التنفس، ثم أغلقت فيما بعدُ، وكنت في أثناء ذهابي إلى زيارة أهلي أمر بالممر الذي يطل على جناح والدي، فأجده واقفاً ينتظرني، فأستأذن من السجان لأسلِّم عليه، فأحياناً يسمح لي بالسلام عليه والحديث إليه، وأحياناً أخرى يرفض أن أذهب إليه.

في سجن عدرا كانت الأمور أكثر فسحة وسعة، حيث خُصص للسجناء السياسيين الجناح رقم (١٠) كان هذا الجناح يحوي ستة مهاجع؛ كان المهجعان الأول والثاني مخصصين لأصحاب الاتجاهات الماركسية والبعثية، وكان المهجع الثالث مخصصاً لأصحاب الاتجاه الإسلامي، والمهجع الرابع كان مخصصاً للسجناء النقابيين، والمهجعان الخامس والسادس وضع فيهما أصحاب قضايا سياسية مختلفة. وكان هذا الجناح يحوي ساحة كبيرة مكشوفة، فيها ملعب لكرة الطائرة.

في هذا السجن سُمح لنا بالزيارة العائلية كل خمس عشرة يوماً، كانت تأتي فيها أمي جالبة معها

بعض الأطعمة والملابس وبعض الكتب من المطبوعات السورية، وكنت أحياناً، إذا كنت أريد أن أُدخل كتاباً من المطبوعات غير السورية نلجأ إلى طريقة نطمس فيها مكان النشر، كان يقوم بذلك أخي نذير.

عكفت في سجن عدرا على دراسة جميع الكتب المقررة في كلية الشريعة، وكان هذا بتوجيه من أستاذي الدكتور جلال الدين الخانجي، وهكذا أحضرت المقررات الأساسية للسنوات الثانية والثالثة والرابعة لكلية الشريعة، وبدأت أدرسها مع الدكتور الخانجي، وكان يشاركنا في المدارسة لبعض المقررات بعض الإخوة، أذكر منهم الأخوين: محمود وأيسر من مدينة عين منين شمالي دمشق. كانت طريقة الدراسة تقوم على أن يُحَضِّر كل منا بحثاً من المقرر ثم نتفق على موعد نتدارس فيه ما تمت قراءته، كان أكثر اهتمامنا على مقررات أصول الفقه، والمقررات الفكرية، ككتاب "نقض أوهام المادية الجدلية" للشيخ سعيد رمضان البوطي رحمه الله، وأيضاً تدارسنا كتاباً في "القواعد الفقهية"، وكتاب "النظريات الفقهية" للدكتور فتحي الدريني، ومما كنا تدارسنه مع أستاذنا الخانجي من غير مقررات كلية الشرعية كتاباً بعنوان "فن الدراسة" وهو كتاب لمؤلف أجنبي مترجم للعربية، وقد استفدت كثيراً من مدارسة هذا الكتاب؛ إذ نبهني إلى أهمية الوقت في حياة الإنسان، وأهمية تنظيم العمل، وأيضاً أهمية الرجوع إلى المعاجم للوقوف على معاني الكلمات الغريبة.

هذا، وقد أفادتني تجربة السجن الاعتماد على نفسي قدر المستطاع، فكنت في الفترة التي سُمح لنا فيها بالزيارات العائلية أقوم بغسل ملابسي بنفسي، ولا أرسلها إلى أمي، مع إلحاحها الشديد والمستمر بأن أُرسل ملابسي معها كي تنظفها لي، فكنت أصر على أن أغسلها بنفسي، وتأبى علي نفسي أن أُرسلها إليها لتنظفها لي. وعندما لحق بي والدي في السنة الأخيرة من السجن، كنت أيضاً أغسل له بعض ملابسه، وكان غالباً ما يرسل ملابسه لتغسلها له أمي، ويقول لي: لا تكلف أنت نفسك بهذا.

ثم إن السجن أفادني أيضاً أن أُحضِّر بعض الأطعمة بنفسي، وخاصة في سجن عدرا؛ فمع أن إدارة ذلك السجن كانت تقدم لنا ثلاث وجبات يوميًّا، إلا أن أغلب ما كان يُقَدم إلينا من طعام كان يحتاج إما إلى تعديل، أو إنه غير كاف، أو لا تستسيغه النفس، فكنت في كثير من الأحيان أُعدُّ الطعام بنفسي، وقد أتقنت صنع الرز بالشعيرية، والرز بالحليب، وسَلَطة البطاطا، ونحو ذلك من الأطعمة. كما أن والدي –رحمه الله– كان يجيد طهي بعض الأطعمة، كالباميا، والفاصولياء، والمجدرة...وكان نَفَسُه بالطعام طيباً.

الاهتمام بالقراءة وطلب العلم

بعد أن وفقني الله لدراسة المقررات الأساسية لكلية الشريعة، اتجهت -وبتوجيه أيضاً من أستاذنا الخانجي- إلى دراسة بعض الكتب الإسلامية، فتدارسنا كتاب "المستصفى" للإمام الغزالي، وشرعنا بدارسة الجزء الثاني من كتاب الموافقات للإمام الشاطبي[1]، وتدارسنا أيضاً كتاب "قطر الندى" و"مغني اللبيب" لابن هشام النحوي، وتدارسنا أيضاً كتاب "جامع الدروس العربية" للغلاييني، وتدارسنا أكثر من كتاب للمفكر الجزائري مالك بن نبي -رحمه الله- أذكر منها الكتب التالية: "الظاهرة القرآنية" "شروط النهضة" "ميلاد مجتمع" "مشكلة الثقافة" "وجهة العالم الإسلامي" وغيرها من كتب مالك. كما تدارسنا أيضاً بعض كتب الشيخ جودت سعيد، ككتاب "مذهب ابن آدم الأول" وكتاب "حتى يغيروا ما بأنفسهم" وكتاب "اقرأ".

في أواخر الثمانينات كان قد ظهر كتابا أستاذ الفلسفة المغربي محمد عابد الجابري: "تكوين العقل العربي" و"بنية العقل العربي" وقد عكفنا على دراسة الأول منهما، ووجدت نفسي أنني أمام فكر جديد لا عهد لي به، لكنني ثابرت وقرأت وحاولت فهم ما أقرأ، لكنني لم أخرج بطائل كبير على مستوى المضمون، بيد أنني وجدت فائدة في التدرب على آلية نقد الأفكار، وعدم الاستلام لأي فكرة تكتب أو تقال، وإنما يجب إخضاعها إلى التحليل والمقارنة، وهي آلية كان يتمتع بها أستاذنا الخانجي؛ إذ استفدت منه في ممارسة هذه الآلية، وإن كانت ممارستي لهذه الآلية على نحو متواضع.

بعد الانتهاء من مدارسة كتاب "تكوين العقل العربي" شرعنا بمدارسة كتاب "بنية العقل العربي"، وهو كتاب يبلغ من حيث الحجم ضعفي كتاب "تكوين العقل العربي"، وقد نبهنا هذا الكتاب إلى أهمية الشاطبي في بناء علم المقاصد، الأمر الذي دفعنا بعدُ إلى الاهتمام بالشاطبي، ودراسة الجزء الثاني من كتابه "الموافقات".

---

[1] وجدت على الورقة الأولى من الجزء الثاني من كتاب الموافقات بخط أستاذي الخانجي التالي: "كان بدء الدراسة على بركة الله الخميس ١٠/ربيع٢/١٤١٠هـ-١٠/ت٢/١٩٨٩م، نرجوه تعالى توفيقاً وموافقة لمراده، إنه خير مسؤول"، هذا، ولم يكتب الله سبحانه قراءة هذا الجزء كاملاً مع الأستاذ الخانجي؛ إذ توقفنا عن المدارسة لوحشة وقعت بيننا. وقد وجدتُ على هامش الصفحة (١٩٢) من الجزء الثاني التالي: "عودةٌ بعد توقف دام أربعة أشهر تقريباً، نسأله تعالى السداد والتوفيق والإخلاص، صباح السبت الموافق ٢٢/ذو الحجة/١٤١٠هـ-١٣/تموز/١٩٩٠م، والحمد لله رب العالمين". وفي الصفحة الأخيرة من الجزء الثاني كُتب التالي: "تم بعونه تعالى وتوفيقه صبيحة يوم الاثنين الموافق ١٣/صفر/١٤١١هـ-٠٣/أيلول/١٩٩٠م، الساعة (٧:٣٠) توقيت صيفي، وكنت صائماً في هذا اليوم، وكان يوم زيارة أيضاً، أسأله تعالى السداد والتوفيق والإخلاص والفرج القريب، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم". وكُتبت في الصفحة نفسها ملحوظة، جاء فيها: "اعتباراً من الصفحة (١٩٢) حتى النهاية تم قراءته بشكل منفرد، والحمد لله".

في فترة تالية كان قد صدر كتاب "بنية العقل السياسي العربي" وعكفنا أيضاً على دراسة هذا الكتاب. ثم ظهر في الساحة الفكرية كتاب محمد شحرور "الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة" فقرأت هذا الكتاب بنفسي، ولم أخرج منه بطائل. ومن الكتب التي قرأتها ونفعني الله بها كتاب لفيلسوف الهند المهاتما غاندي، لم أعد أذكر اسمه تماماً، لكنه كتاب يتحدث فيه عن سيرته الذاتية، وتجاربه الحياتية. وقرأت أيضاً كتاباً يتضمن مذكرات الرئيس الأمريكي الثاني والثلاثين للولايات المتحدة فرانكلين روزفلت، وهو كتاب يتحدث فيه الرئيس روزفلت عن مذكراته الشخصية والرسمية، ولا أزال أذكر عبارة يذكر فيها، أنه لما قام بزيارة إلى انكلترا في أثناء الحرب العالمية الثانية، وعندما نزل من الطائرة في مطار لندن، ورأى الجنود والشعب الإنجليزي، يقول: "عندما رأيت هؤلاء، علمت –أو أيقنت– أن النصر سيكون حليفهم، وأنه لا يمكن لشعب كهؤلاء أن يهزم في حربه مع أعدائه".

ومن الكتب التي قرأتها، وتركت أثراً في نفسي كتاب عن تاريخ الدولة العثمانية بعنوان "تاريخ الدولة العلية العثمانية" لمؤلفه: محمد فريد (بك) ابن أحمد فريد (باشا) وقد صحح لي هذا الكتاب معلومة تاريخية، كان واضعو المناهج الدراسية في بلادنا قد زرعوها في عقولنا، وصدَّعوا بها رؤوسنا، تلك المعلومة تتعلق بمن يسمون شهداء السادس من أيار، الذين أعدهم جمال باشا السفاح، زرعوا في عقولنا أن هؤلاء شهداء الوطن، بل خصصوا عيداً برأسه لهؤلاء (الشهداء/الأبطال)، سموه عيد الشهداء، كنا نحتفل به في السادس من أيار من كل عام، وقد جاء هذا الكتاب ليصحح هذا الخبر، ويخبرنا أن هؤلاء الذين كنا نحتفل بعيدهم، ونعتبرهم شهداء الوطن، كانوا في الحقيقة عملاء للاستعمار، ودعاة لمحاربة الدولة العثمانية، وسعاة لتمزيق وحدتها، وشق صفها.

في الأيام الأولى لانتقلنا إلى سجن عدرا، كنت أتحدث مع والدي من خلال النافذة المطلة على ساحة التنفس، وكنت أحياناً أقرأ عليه ما تيسر من القرآن الكريم، ثم بعد فترة غير طويلة تم إغلاق هذه النافذة بطريقة لا يستطيع أحد الحديث من خلالها. كما أنني في الأيام الأولى لانتقلنا إلى سجن عدرا، وقبل أن يُسمح لنا بالزيارات العائلية، استطعت من خلال النوافذ العليا للمهجع الذي أنا فيه الحصول على بعض الكتب التي كنت أرغب بقراءتها، وذلك بالتنسيق مع والدي وبعض الإخوة في الجناح المجاور لجناحنا، وكان يتم ذلك من خلال وضع الكتاب في كيس نايلون محكم الإغلاق وربطه بحبل، ثم دفع الحبل باتجاه النافذة للمهجع الذي أنا فيه، وبهذه الطريقة حصلنا على بعض الكتب التي كنت أتشوف وأتشوق لقراءتها، أو مدارستها.

ثم إن والدي –رحمه الله– كان على إلمام لا بأس به بتفسير المنامات، وكان مرجعاً للسجناء في هذا الشأن، ومنذ أن وعيت على الدنيا، وأنا أشاهد والدي يقلِّب بين الحين والآخر كتاب ابن سيرين "تفسير الأحلام" أو "منتخب الكلام في تفسير الأحلام" بهامش "تعطير الأنام في تعبير المنام" للشيخ عبد الغني

النابلسي، وكان قد عمل عليه فهرساً تسهيلاً للوصول إلى المادة المطلوبة، كما أنه كان يضع خطوطاً حمراء على عناوين المواد...وفي يوم من أيام سجن عدرا رأيت في المنام رؤيا أني أصلي بالناس إماماً، وعندما التقيت بوالدي على النافذة المطلة على ساحة التنفس، قصصت عليه الذي رأيت، فاستبشر خيراً، وقال لي: سوف تكون إماماً تصلي بالناس، وأنا اليوم –والحمد لله– ومنذ أعوام أتولى إمامة الموظفين في صلاة الظهر في وزارة الأوقاف التي أعمل فيها، وكذلك أتولى إمامة الناس في مسجد العمارة التي أسكن فيها، وأجد في نفسي رغبة في تولي الإمامة رسميًّا رغم التقييد الذي يقتضيه مثل هذا العمل، وأنا لا أحب التقييد.

ومرة أخرى رأيت في المنام شيئاً يتعلق باللون الأسود، ولم أعد أذكر تفاصيل ما رأيت، لكن ما أذكره أني قصصت على والدي رؤياي تلك، فاستبشر خيراً أيضاً، وقال لي: هذا يدل على أنه سيكون لك سؤدد في قابل الأيام، ومع أن هذا لم يتحقق حتى تاريخ كتابة هذه المذكرات، إلا أنني متفاءل بما قاله لي والدي، وأطلب من الله دوماً وأبداً الخير والتوفيق والسداد في الأمر كله.

بعد مدة غير طويلة سُمح لنا باستعارة كتب من مكتبة السجن، التي كانت لا تخلو من كتب نافعة وقيمة. وكانت العادة أن يُسمح لكل سجين باستعارة كتاب، أو كتابين كل خمسة عشر يوماً، فكان كل من يريد الاستعارة يكتب ما يريده من كُتب ضمن قائمة مخصصة لاستعارة الكتب، ثم نتبادل الكتب فيما بيننا، وكنت في فترة من الفترات مكلفاً بإحضار الكتب من المكتبة، وكان هذا التكليف يروق لي، وأسعد به، وكان يُطلق على من يتولى هذا العمل وزير الثقافة من غير إضافة عبارة (والإرشاد القومي)!

هذا، ومن الشخصيات التي لا ينبغي إغفالها في تلك الفترة، والتي تركت أثراً محموداً في نفسي، شخصية الدكتور خالد كوكي، هذا الطبيب كان قد تم اعتقله عقب تخرجه من كلية الطب من جامعة دمشق، أو ربما كان في سنته الدراسية الأخيرة، وكان قد عقد زواجه على طبيبة أيضاً، لكن السلطة الأسدية اعتقلته قبل أن تتم فرحته، ودفعت به إلى سجن تدمر الرهيب، فأمضى هناك نحو خمس سنين أو يزيد، ثم أعيد إلى سجن عدرا ليمكث فيه نحو السنتين، ثم يخرج منه ضمن المفرج عنهم سنة سبع وثمانين وتسعمائة وألف.

كان سرير هذا الطبيب مقابلاً لسريري في نهاية المهجع، وقد توثقت علاقتي به من خلال تقديم بعض الخدمات له بوساطة والدتي حفظها الله، كإحضار بعض الحاجيات، والتواصل مع أهله، وغير ذلك من الأمور التي لم أعد أذكرها، ثم في مرحلة تالية كنا نتناول الطعام سوية، وكانت الاستفادة الأكبر من هذا الطبيب هي تعلم اللغة الإنجليزية، فكنت مرتبطاً معه بموعد يومي لقراءة بعض القصص الإنجليزية، بل إنه أحضر لي بعض القصص الإنجليزية من بيته، وجعلها تحت تصرفي، وأخبرني أن قراءة القصص الإنجليزية أمر مفيد لتعلم اللغة الإنجليزية، وبالفعل استفدت من نصيحته تلك. ومما أفادني به أيضاً أهمية الرجوع إلى

القاموس من أجل رفع رصيدي من المفردات اللغوية.

كنت أشعر أن هذا الطبيب معجب ببعض الصفات التي جبلني الله عليها، والتي لا أدري ما هي بالضبط، لكن قال لي أكثر من مرة: إذا فرَّج الله عني -يقصد نفسه- فسوف أوصي على ولد مثلك! ونتيجة قربه مني، ووقوفه على الكثير من تصرفاتي، واطلاعه على نفسيتي وسلوكياتي، قال لي في إحدى المرات: إنك سوف تتعذب في حياتك! وربما استنتج هذا من صفة التردد التي تفسد عليَّ حياتي، وبالفعل فإن المستقبل صدق قوله إلى حد غير قليل.

ومن الأسماء الحاضرة في هذه الفترة، والتي أيضاً تركت أثراً محموداً في نفسي شخص، اسمه حسان الطباع (أبو نزار) كان قد أمضى فترة خمس سنوات في سجن تدمر، ثم جيء به إلى سجن عدرا، ولم أعد أذكر فيما إذا كان قد حكم عليه في سجن تدمر، أم لم يثبت عليه شيء. هذا الأخ كان يحمل إجازة في اللغة الإنجليزية، وكان يعمل موظفاً في البريد العام، وكان يسكن في منطقة القيمرية قرب الجامع الأموي بدمشق، كنت التقته مرة أو مرتين قبل دخولي السجن، وكانت تربطه بأخي عزت علاقة ما، هذا الأخ قبل فترة الاعتقال -بالإضافة إلى عمله الرئيس في البريد- كان يعمل بعد الدوام على شاحنة سوزوكي، يستعين بها على تكاليف الحياة.

كنت قبل يوم من اعتقالنا، وتحديداً يوم السبت، عائداً إلى البيت بعد المغرب، وربما بعد العشاء، وكان من عادتنا أن ندخل بيتنا من خلال باب الحديقة، ففتحت الباب يومئذ، فوجدت أخي عزت وزميله مازن خان يقفان على رصيف الحديقة، ويبدو عليهما شيء من الترقب والقلق، وبدا الأمر وكأنهما ينتظران أحداً، فسألتهما: ما شأنكما: فأخبراني أنهما ينتظران شخصاً لأمر مهم، وكان من عادتي أن لا أسترسل في الأسئلة، وأن لا أتدخل في خصوص شأنهما. ثم مضى ذلك اليوم بما فيه، وجاء اليوم الذي بعده، وجرى ما أخبرتُ بأمره بداية هذه الذكريات.

بعد أن جرى علينا ما جرى، والتقيت بالأخ الطباع في سجن عدرا، وعاشرته عن قرب، علمت من أمره عدم تقيده بالمواعيد؛ حيث كنت ملتزماً معه بموعد يومي لمراجعة القرآن الكريم، فكان كثيراً ما يتأخر عن الموعد، وأحياناً يتخلف عنه، فتحصل لي من الرأي أن ذلك اليوم الذي كان فيه أخي عزت وزميله مازن ينتظران في الحديقة، إنما كانا ينتظران الأخ حسان من أجل تحميل الأكياس المحتوية على علب البيبسي المُعَدَّة، أو التي أُعدَّت كمواد متفجرة، والتي وجدها رجال الأمن يوم اعتقالنا في غرفة الضيوف، فكان تخلف الأخ حسان في ذلك اليوم أمراً سيئاً بالنسبة لنا، ولكن قدر الله وما شاء فعل.

والذي يهمني هنا، أنه بعد أن خرج الأخ نورس الحجي من السجن، رتبت موعداً مع الأخ حسان لمراجعة القرآن، وكان حافظاً للقرآن، كنا نراجع القرآن سوية بالطريقة نفسها التي كنت أراجع فيها القرآن

مع الأخ نورس الحجي. إضافة إلى مراجعة القرآن، فقد استفدت من الأخ الطباع في تعلم اللغة الإنجليزية، فكنا نعقد معه جلسة منتظمة لتعلم اللغة الإنجليزية.

ومن الإخوة الذين جمعنا بهم السجنُ الأخ وليد عرفات، وهو دمشقي، كان هادئاً ولطيفاً، تخرج من كلية الهندسة المدينة، ثم جرى عليه من الاعتقال ما جرى على كثير غيره، وأمضى بضع سنين في سجن تدمر، ثم أحيل إلى سجن عدرا، كان مهتمًّا باللغة الإنجليزية، فكنت أقرأ معه بعض الكتب الإنجليزية، ومما يحضرني الآن أنني قرأت معه كتاباً عن الثورة في دولة السلفادور من بلدان أمريكا اللاتينية، وقد نفعني الله بالأخ المذكور.

ومنهم أيضاً الدكتور المهندس نبيل سالم من حلب، كان من خيرة الأساتذة في كلية الهندسة في جامعة حلب وجامعة تشرين في اللاذقية، اعتقل ضمن جماعة النقابيين، كان يجيد لعب كرة الطاولة، وبعد أن انتقلتُ إلى مهجع النقابيين بعد أن أفرج الله عن عدد منهم، أقول: بعد أن انتقلت إلى مهجعهم كان سريري مجاوراً لسرير الدكتور نبيل، فكان سريره عن يميني، وسرير الدكتور جلال الدين الخانجي عن يساري. كانت لنا جلسات عديدة ومديدة مع الدكتور نبيل في تعلم اللغة الإنجليزية، قرأت معه بعض السلاسل التعليمية الإنجليزية، وكان بين الحين والآخر يُجري لنا اختباراً في الإملاء، وكان جديًّا في تدريسه وتعليميه، فنفعني الله بالجلوس بين يديه.

ومنهم أيضاً الأخ مأمون السواح من دمشق، كان مهندساً كهربائيًّا عمل فترة في أمريكا، وربما عمل أيضاً مدة في ألمانيا الغربية قبل أن تتوحد، ثم قرر العودة إلى بلده سوريا من أجل أن يخدم بلده، وينفعه، فاعتقله نظام البعث، وزُجَّ به في غياهب السجون، اعتقل ضمن جماعة النقابيين الدمشقيين، كان ذا شخصية جادة وصارمة، قوَّالاً للحق، لا يخشى في الله لومة لائم، وكان صاحب نخوة، وكان يجل والدي كثيراً، وكان يعرض على والدي عندما تأتي أمي لزيارتنا أن تعود أمي بعد الانتهاء من الزيارة في سيارة زوجته، وجاءت فترة كنت بدأت معه بقراءة ترجمة القرآن باللغة الإنجليزية.

وتبقى الشخصية الأبرز والأكثر أثراً في نفسي، والتي نفعني الله بملازمتها شخصية الأستاذ المهندس جلال الدين الخانجي من حلب، وهو كما أسلفت يحمل شهادة الدكتوراه في الهندسة المدنية من جامعة السوربون في فرنسا، وسمعت أنه من الذين حصلوا على الترتيب الأول على مستوى القطر، أو على محافظة حلب في الشهادة الثانوية، كان شخصية بارزة في السجن، وذا ثقافة إسلامية ومعاصرة عالية، محباً للعلم، وعاشقاً للقراءة، لم يُرَ إلا حاملاً كتاباً يقرأه، أو في مجلس علم يحاور ويناقش ويعلم، وكانت الابتسامة لا تفارق وجهه، وكان من المحافظين على صيام يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع، وله الفضل الأوفى في متابعة تحصيلي الجامعي؛ وذلك من خلال دراسة المقررات الجامعية، وقرأت عليه عدداً من أمهات الكتب

الإسلامية، أهمها كتاب "المستصفى" للإمام الغزالي، والجزء الثاني من كناب "الموافقات" للشاطبي، وكتاب "مغني اللبيب" لابن هشام، إضافة إلى العديد من كتب المفكر الجزائري مالك بن نبي رحمه الله، وكتب أخرى لم أعد أذكرها. كان يوصف بأنه الشخص الوحيد في السجن غير المسجون؛ لأنه كان دوماً عاكفاً على القراءة وطلب العلم.

لم تقتصر قراءتي على الكتب الإسلامية، بل طمحت نفسي إلى قراءة فكر الآخر، فقرأت كتاباً، أو كتابين في الفكر الماركسي، وأذكر أنه في يوم من الأيام وصل إلى الدكتور الخانجي كتاب يتحدث عن التاريخ الماركسي، كان الكتاب مؤلفاً من ثلاثة أجزاء، لكاتب من إحدى دول أوربا الشرقية سابقاً، الجزء الأول منه كان تحت عنوان "النبي الأعزل" والثاني تحت عنوان "النبي المسلح" والثالث "النبي المنبوذ" والكتاب يتحدث عن شخصية تروتسكي، أحد القيادات الماركسية البارزة خلال الفترة (١٩٢١-١٩٢٩م) وخلافه مع ستالين، وغير ذلك من أخبار الدولة الماركسية في الاتحاد السوفياتي السابق. وقد قرأت الأجزاء الثلاثة في أقل من أسبوع، وأفادتني قراءتها في الوقوف على حقيقة الصراع بين التيارات الماركسية.

بعد عام تقريباً من انتقلنا إلى سجن عدرا تمت مقابلة عدد من الإخوة المنتهية أحكامهم، وكنت واحداً منهم، وبعد فترة قصيرة من تلك المقابلات بدأت إدارة السجن تطلق سراح اثنين من الذين تمت مقابلتهم كل يوم اثنين من كل أسبوع، وهكذا، أُطلق سراح الإخوة: خالد كوكي، نورس الحجي، حسان الطباع، وآخرين لم أعد أذكر أسماءهم، وبقيت أنا في السجن، وكان قد مضى على انتهاء فترة حكمي ما يقرب من الخمس سنين.

ألمعت قريباً إلى أنني أوليت اهتماماً ملحوظاً بتعلم اللغة الإنجليزية، فلم أترك أحداً ممن معي في السجن يمكن الإفادة منه في تعلم هذه اللغة إلا طرقت بابه وجالسته وأخذت عنه قليلاً أو كثيراً، وفوق هذا كنت قد خصصت وقتاً لتعلم اللغة الإنجليزية بنفسي، فكنت أقرأ قصة، أو أتمرن على كتابة الكلمات الجديدة التي أقف عليها في أثناء قراءتي، أو دراستي، وأذكر أنني في فترة من الفترات كان معدل ما خصصته لتعلم اللغة الإنجليزية ثماني ساعات يوميًّا، موزعة بين قراءة ومدارسة وتمرين واستماع.

ولا يفوتني أن أذكر في هذا الصدد أنني في فترة من فترات سجن عدرا بدأت أهتم بقراءة كتب الأدب؛ فقرأت كتاب "الأيام" لطه حسين، وهو كتاب مؤلف من ثلاثة أجزاء، وقد أعجبت بهذا الكتاب من ناحية الأسلوب والمضمون، وربما قرأت لطه حسين كتباً أخرى، بيد أنني لم أعد أذكر عناوينها. وقرأت أيضاً لعباس محمود العقاد، وأسلوبه أيضاً راق، ويحتاج لعقل يقظ. وقرأت لأحمد حسن الزيات، وقرأت كتاب "العبرات" للأديب لطفي المنفلوطي، وأواخر عهدي بالسجن بدأت أقرأ لأديب الإسلام محمد

صادق الرافعي رحمه الله، وما أدراك ما الرافعي!؟ ذو أسلوب راق جذل، ويحتاج إلى قارئ جَلِدٍ، وجدت صعوبة في بداية قراءته، ثم رويداً رويداً بدأت أتفاعل معه، وبعد خروجي من السجن كان هو كاتبي المفضل؛ حيث قرأت العديد من كتبه، وفي مقدمة ما قرأت كتاب "من وحي القلم".

وكان من جملة المعتقلين بتهمة الانتماء إلى جماعة الإخوان المسلمين أخ من دير الزور اسمه مروان مشعل، كان يَوَدُّني ويحاول التقرب مني، ويتجاذب معي أطراف الحديث، وكان قد لَحَظ شغفي بالقراءة، واهتمامي بممارسة الرياضة، والمحافظة عليها، وقد سألني ذات يوم سؤالاً عن مكانة هذين الأمرين في حياتي، فأجبته بالقول: إن القراءة هي حياتي، وممارسة الرياضة جزء أساس في حياتي، فتبسم ضاحكاً من جوابي، وولى مدبراً ولم يُعَقِّب، وقد بدت عليه علامات التعجب والاستفهام.

ممارسة الرياضة

في الفترة الأولى من اعتقالي وإلى تاريخ انتهاء مدة حكمي لم أكن أهتم بممارسة الرياضة، حيث كان جل اهتمامي منصرفاً إلى حفظ القرآن ومراجعته وتثبيته، وأيضاً كنت منصرفاً بعد ذلك إلى المطالعة والقراءة، وبعد أن أنهيت مدة حكمي في سجن القلعة، وأُعدت إلى سجن الشيخ حسن، بدأت أمارس الرياضة من جديد؛ إذ بدأت أدرك أهمية ممارسة الرياضة بالنسبة للسجين، الذي يمضي أكثر وقته بين قعود ونوم وأكل. وهكذا كنت في أثناء فترة التنفس في سجن الشيخ حسن أقوم بالجري في ساحة السجن، ثم أقوم ببعض الحركات الرياضية. وعندما انتقلت إلى سجن عدرا، كان المجال فيه أرحب لممارسة بعض الألعاب الرياضية، فبالإضافة إلى الجري اليومي لمدة ربع ساعة تقريباً وممارسة بعض الحركات الرياضية، كنت أمارس رياضة كرة القدم في الوقت المخصص لنا لمزاولة هذه الرياضة، لكن بعد فترة زهدت بممارسة هذه اللعبة، وأوليت اهتماماً بممارسة كرة الطائرة، وكنت أُجيد اللعب في هذه الرياضة نوعاً ما، وخاصة في مجال الدفاع، كنا بين الحين والآخر نجري مباراة مع السجناء الماركسيين، وكان فريقنا يضم عدداً من اللاعبين الجيدين، وكانت اللقاءات بيننا تحتد، وجمهور السجناء يراقب المباراة عن كثب، كانت المباريات بيننا وبينهم تنتهي في الأغلب لصالحهم، وكنا أحياناً نفوز عليهم.

ومما أذكره في هذا الصدد، أنه في فترة من الفترات تم اختياري رئيساً لفريقنا لكرة الطائرة، وقد استعظمت هذا الأمر، فقلت لأستاذي الخانجي: يبدو أنني حُملت أمراً لا قِبَل لي به، أو كلاماً نحواً من هذا، فقال لي بلهجة حلبية: أبوي! أنت شيخ الرياضين!! ثم توليت قيادة الفريق، ولم أعد أذكر إلى ما أفضت قيادتي له. ثم بعد فترة ليست بالقصيرة أيضاً زهدت نفسي برياضة كرة الطائرة.

وثمة أمر طريف فيما يتعلق بممارسة الرياضة، وهو أنني اشتهرت عني عبارة تقول: أنا أمارس رياضة بقاء لا رياضة نماء، وذكرت مرة هذه العبارة بحضرة أستاذي الخانجي، وكان أيضاً من المحافظين على ممارسة الرياضة، وإن كان ليس من أهلها، أقول: ذكرت هذه العبارة في حضرته، فضحك على عادته، وقال: هذه العبارة ستصبح مثلاً للسجناء، وكنت أقصد بهذه العبارة أن القصد من ممارسة الرياضة عندي ليس تنمية العضلات وفتلها، وتنمية القدرة على التحمل، بل القصد الأساس منها المحافظة على رشاقة الجسم ولياقته، وخاصة أننا في مكان الحركة فيه محدودة ومعدودة، فكانت ممارسة الرياضة بالنسبة لنا أمراً مهمًّا، وذا بال، لا ينبغي إهماله ولا تجاهله.

ثم ها هنا أمر طريف آخر، وهو أن أحد السجناء من بعث العراق، وكان من محافظة درعا، يكنى بأبي إياد، كان يراني كل صباح أمارس رياضة الجري، وبعض التمارين الرياضية، وبعد أن أُنهي برنامجي الرياضي، وأنا في طريقي إلى المهجع من أجل الاستحمام وتغيير ملابس الرياضة، كنت أصادفه في أثناء

ذلك واقفاً في ركن من أركان ساحة التنفس، ومرة من المرات استوقفني وعلى وجهه علامات التعجب والاستغراب، وقال لي: لماذا أنت تمارس الرياضة؟ ومرد تعجبه واستغرابه أن جسمي كان نحيفاً، وفي ذهن الناس أن ممارسة الرياضة إنما يقوم بها أصحاب البدانة والسمنة، فلم أجبه، وعلمت أنه جاهل في هذه الأمور، وأن فهمه لممارسة الرياضة لا يعدو فهم عوام الناس لها، مع أنه إنسان يحمل شهادة جامعية في اللغة العربية.

يبقى فيما يتعلق بممارسة الرياضة أمر طريف ثالث، وهو أنه كان من عادتي بعد أن أُنهي برنامجي الرياضي أن أستحم حماماً سريعاً، كنت أفعل ذلك في المكان المخصص لقضاء الحاجة؛ لأن المكان المخصص للاستحمام لا أستطيع استعماله إلا في اليوم المخصص لي؛ حيث إن نظام المهجع يقضي بتخصيص مكان الاستحمام لعدد من الأشخاص كل يوم على مدار الأسبوع؛ وبما أنني كنت أمارس الرياضة يومياً في الأغلب، فقد كان الحال لا يسمح لي باستخدام الحمام إلا في اليوم المخصص لي، الأمر الذي يحملني على أخذ حمام سريع في المكان المخصص لقضاء الحاجة، فكنت أدخل إليه، وأسكب على جسمي كمية من الماء، وأستعمل الصابون لأزيل عرق جسمي، وكان ذلك لا يستغرق مني سوء بضع دقائق، حيث إنني كنت في مهجع يضم أكثر من عشرين شخصاً، والحمامات في الفترة الصباحة عادة ما تكون مطلوبة مقصودة، وبالتالي كان الذوق يقتضي أن لا أسترخي في الاستحمام، بل أن أستحم بشكل سريع، وأخرج لأفسح المجال لغيري ليستحم، أو ليقضي حاجة لا يقضيها أحد غيره، وقد لاحظ السرعة في استحمامي أستاذي الخانجي، فكان يطلب من ممارسي الرياضة الآخرين أن يستحموا حماماً عمريًّا، أَخْذاً من اسمي وصفة استحمامي، وكثيراً ما سمعته يردد تلك العبارة، ويقولها والابتسامة تعلو شفتيه كما هو شأنه دوماً.

ثم إن في سنة سبع وثمانين وتسعمائة وألف زار نقيب المحامين العرب أحمد الخواجة، ونائبه فاروق أبو عيسى سوريا، والتقيا بالهالك حافظ الأسد، وتكلما بشأن إطلاق سراح النقابيين المعتقلين، وعلى إثر هذا اللقاء تم الإفراج على جميع المحامين، ما عدا ثلاثة منهم كان الهالك الأسد ناقماً عليهم، منهم المحامي ثريا عبد الكريم من مدينة أريحا، والاثنين الآخرين لم أعد أذكرهم، ولما أصبح مهجع النقابين فيه بضعة أسرَّة فارغة، طلبت نقلي إلى مهجع النقابيين، واستقر بي المقام بين سرير الدكتور نبيل سالم، وسرير الدكتور جلال الدين الخانجي، وكان رقم سريري الثاني من جهة يمين الغرفة، وبقيت على هذا السريري إلى تاريخ الإفراج عني في نهاية سنة إحدى وتسعين وتسعمائة وألف.

السجن والجنس

منذ بداية دخولي السجن إلى منتصف سنة أربع وثمانين وتسعمائة وألف، كانت الحاجة الجنسية غائبة عن مجال تفكيري، أو على الأقل شبه غائبة، وكان الجنس الآخر لا يشغل حيزاً من عقلي، لكن قبيل الانتقال إلى سجن عدرا بأشهر قليلة، وبعد أن كنت قد تجاوزت الخامسة والعشرين من العمر، بدأت الحاجة للجنس الآخر تطفو على السطح، وبدأت المرأة منذ ذلك الحين تأخذ حيزاً من تفكيري، ولطالما كنت أتخيل كيف سأعامل المرأة التي ستكون شريكة حياتي، ولست أخفي أنني مع اشتداد الغلمة، كدت أن أقع في بعض المطبات والمزالق التي لا تُحمد عقباها، ولكن الله سلَّم.

ومما أذكره هنا، أنني كنت على بينة من حديث رسول الله ﷺ: (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء)[1]، وقد كنت -بفضل الله- محافظاً على صيام يومي الخمس والاثنين من كل أسبوع، وعلى الأقل صيام ثلاثة أيام من كل شهر، ومع هذا كنت أجد شهوة الجنس تشتد عندي، وكنت أتساءل دوماً: ها أنا أصوم وأحافظ على الصيام، ولا تزال شهوة الجنس تعذبني، وتفسد علي حياتي، ولم أجد تفسيراً لذلك مع إيماني الكامل بصدق قول رسول الله ﷺ.

وكان أخ من اللاذقية تربطني به علاقة خاصة، وكذلك كانت ثمة علاقة بين أمي وأهله، وكان لهذا الأخ أخت اسمها روضة، وقد حدثتني نفسي مرة أن أحدثه بشأن الزواج منها، وكدت أفاتحه في حقيقة مشاعري، بيد أن الله فرج عنا قبل أن يحدث ما كنت قد هممت به.

ذكرت ما ذكرت لأبين أن الإنسان إذا حُرم مما هو من ضرورات حياته، قد يدفع به ذلك الحرمان إلى أمور لا يرضى عنها الشرع، ولا تقرها الطباع السليمة، وأيضاً ذكرت هذا لأبين أن المرأة جزء أساس من حياة كل إنسان، وأن الحرمان منها، إنما يعني الشقاء والعذاب، وربما الشذوذ والانحراف، وغالباً ما يعني عدم اكتمال شخصية الإنسان.

هذا، ومما يحضرني في هذا السياق، أنه في ليلة من ليالي سجن القلعة، استيقظ الناس في المهجع الذي كنت أقيم فيه على أصوات غريبة، وبعد تحري الأمر، تبين أن أحد السجناء -وكان في حدود الثلاثين من عمره- كان يمارس الفاحشة مع شاب لم يبلغ العشرين من عمره، وكان فاعل الفاحشة هذا يصلي ويصوم ويعبد الله، لكن الشيطان سول له أن يفعل ذلك الفعل الشنيع، ولما اكتشف من كان معه أمره، أنَّبوه على فعله، فأخذ يعتذر إليهم، ويتعهد لهم بعدم العودة إلى هذا الفعل ثانية.

---

[1] رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

الأيام الأخيرة في السجن

بعد أن تم الإفراج عن الإخوة الذين جرت المقابلة معهم، وبعد أن تم الإفراج أيضاً عن العدد الأكبر من النقابيين المحاميين، وطنت نفسي على التأقلم مع حياة السجن، واستقر الرأي عندي أنه لا خروج لي من السجن، وسارت الأيام في السجن كسابقتها بين قراءة، وممارسة للرياضة، ومحافظة على صيام يومي الاثنين والخميس.

وقد ذكرت في موضع سابق أن والدي –رحمه الله– كان قد سبقني إلى سجن عدرا مع سجناء سجن القلعة، وكان يقيم في الجناح المجاور للجناح الذي أنا فيه. بعد انتقلنا بفترة قصيرة إلى سجن عدرا تم نقل النقابيين من الجناح المجاور لجناحنا، وتم وضعهم في مهجع مستقل، ولما كان والدي –رحمه الله– لم يكن قد أنهى مدة حكمه بعد، فقد بقي في الجناح المجاور لجناحنا إلى أن أنهى مدة حكمه مع نهاية الشهر الثالث سنة تسعين وتسعمائة وألف. والجدير بالذكر هنا أن والدتي –حفظها الله– كانت تتكلف بالمجيء إلى سجن عدرا عدة مرات كل شهر؛ حيث كانت زيارتي كل خمسة عشر يوماً، وكانت زيارة والدي أسبوعيًّا، وهذا يعني أنها كانت تأتي إلى سجن عدرا ست مرات كل شهر، وذلك من سنة خمس وثمانين وتسعمائة وألف إلى تاريخ خروجنا من السجن سنة إحدى وتسعين وتسعمائة وألف، ولا أذكر أنها تخلفت عن زيارتي أو زيارة والدي يوماً من الأيام المخصصة لزيارتنا.

وفي الواقع، فإن أمي بذلت جهداً جباراً يعجز عنه الرجال خلال فترة وجودنا في السجن؛ فهي خلال الفترة التي سُمِحَ لنا فيها بالزيارة كانت لا تتخلف عن زيارتنا أنا ووالدي عندما كنا معاً في سجن القلعة، وعن زيارتي وزيارة والدي بعد أن افترقنا، حيث كانت تأتي محمَّلة اليدين بالأغراض، ولطالما رأيتها، وأنا واقف على شباك الزيارة، وهي داخلة من بوابة السجن، تحمل الطعام والأغراض إلي، وهي تتمايل ذات اليمين وذات الشمال من ثقل ما تحمله، وعندما تراني من بعيد يتهلل وجهها، وتعلوه الابتسامة والفرحة. ثم هي من جانب آخر، بذلت جهداً كبيراً في القيام بالمهمات التي كان يكلفها بها والدي، تلك المهمات التي تقتضي منها الذهاب إلى بعض أهالي السجناء لإيصال معلومات عنهم، أو إحضار بعض الأغراض والحاجات إليهم؛ ولم يكن ذلك مقتصراً على أهل السجناء في دمشق، بل غير مرة سافرت إلى حلب، وإلى اللاذقية، وإلى درعا للقيام بتلك المهمات، فجزاها الله كل خير.

في الأول من شهر أب/أغسطس سنة تسعين وتسعمائة وألف ميلادية تابعنا خبر غزو صدام حسين –رحمه الله– لدولة الكويت، وقد صدمنا هذا الحدث كثيراً، وأذكر أن أستاذي الخانجي قال لنا في أول يوم للغزو العراقي لدولة الكويت: لقد رجعت أمتنا للوراء خمسين عاماً!! وصدق فيما قال.

الخروج من السجن

في أواخر سنة إحدى وتسعين وتسعمائة وألف سرت شائعات قوية داخل السجن، تفيد أنه سيتم الإفراج عن عدد كبير من السجناء السياسيين، كنت في تلك الفترة لا أعول كثيراً على مثل هذه الشائعات؛ من جهة أننا كثيراً ما كنا نسمع مثل هذه الشائعات، ثم لا يكون إفراج ولا هم يحزنون، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، حتى لو كان ثمة إفراج، فلن أكون أنا من بين المفرج عنهم؛ وذلك اعتماداً على التجربتين اللتين مررت بهما، ومن هنا كنت في تلك الفترة قد وطنت نفسي على التأقلم مع حياة السجن، ولم أعد أشغل فكري وتفكيري بأمر الخروج من السجن، وأخذت أمضي أيامي في السجن انطلاقاً من تلك النظرة.

في الأسبوع الأول من الشهر الأخير من سنة إحدى وتسعين وتسعمائة وألف تم الإفراج عن أكثر النقابيين المهندسين: المهندس رياض البسطاطي -رحمه الله- والمهندس جلال الدين الخانجي، والمهندس مأمون السواح، والمهندس نبيل سالم، والمهندس أبو حازم، والمهندس غسان النجار، وتم التحفظ على المهندس سليم خير بيك -وهو نصيري، ويُظهر معارضته للنظام-. تفاءلت بهذه الخطوة، واستبشرت خيراً، وعاد أمل الإفراج يراودني من جديد.

مساء يوم السبت السابع من شهر جمادى الآخرة سنة اثنتي عشرة وأربعمائة وألف للهجرة، الموافق الرابع عشر من شهر كانون الأول سنة إحدى وتسعين وتسعمائة وألف، وفي حدود الساعة السادسة والنصف مساء، وفي أثناء تناولي لطعام العشاء مع والدي، دخل أحد السجانين -واسمه حاتم، كان نُصيريًّا حاقداً- دخل المهجع الذي أنا فيه، وهو يحمل ورقة كتب فيها أسماء عدد من السجناء، ثم بدأ يقرأ الأسماء التي فيها، ويطلب ممن له اسم ضمن قائمة الأسماء أن يجهز نفسه للخروج من السجن. قرأ السجان عدداً من الأسماء، ثم تلا اسمي، بيد أنه أنهى قراءة الأسماء التي في الورقة التي بين يديه، ولم يقرأ اسم والدي فيمن قرأ من الأسماء، فتألمت كثيراً، وبدأت الدموع تذرف من عيني، وأخذ يتجاذبني شعوران: شعور بالفرح لأنني سأخرج من السجن، وأستعيد حريتي، وشعور بالحزن؛ لأن والدي لن يخرج معي، بل سيبقى في السجن. ثم أخذ بعض رفاقي في السجن يواسونني، ويقولون لي: سيُفرج عن أبيك قريباً فلا تقلق، وهذا الذي حصل بالفعل.

جمعت أغراضي، وكان بينها طاولة صغيرة أدرس عليها، إضافة إلى تلفاز أبيض وأسود صغير، ومجموعة من الكتب، والملابس، وتجمعنا في مكان مخصص؛ لنقلنا إلى جهة لم نكن نعلمها. في حدود التاسعة مساء طُلب منا أن نستقل وسيلة نقل متوسطة الحجم، تتسع لما يقرب من عشرين راكباً، ثم تم نقلنا إلى إحدى فروع الأمن السياسي بدمشق في منطقة المزرعة، وهناك قابلتنا لجنة من الضابط، كانت

تستدعي كل واحد منا على انفراد، وتطلب منه التوقيع على ورقة تتضمن شروطاً ثلاثة ليُصَادَق على الإفراج عنه، والشروط فيما أذكر هي:

أولاً: عدم القيام بأية أعمال تمس بأمن الدولة واستقرارها ومصالحها.

ثانياً: مراجعة فرع الأمن السياسي مرة كل أسبوع.

ثالثاً: الإخبار عن أي شخص يهدد أمن الدولة.

كان كل من يقبل بهذه الشروط ويوقع عليها، يتم الإفراج عنه ويُطلق سراحه، وكل من يرفضها، أو يرفض شرطاً منها لا يفرج عنه، وأكثر الذين تمت مقابلتهم، وافقوا على تلك الشروط، وتم الإفراج عنهم، وسمعت بعدُ أن المهندس سليم خير بيك كان من الذين رفضوا التوقيع على هذه الشروط، فتمت إعادته إلى السجن، ثم تم الإفراج عنه بعد مدة ليست طويلة.

بعد أن وقعنا على الورقة المتضمنة لشروط الإفراج، تم تزويدنا بورقة تفيد أنه تم الإفراج عنا، ولم أعد أذكر تماماً ما تضمنته تلك الورقة، ثم سُمح لنا الاتصال بأهلنا عن طريق هاتف الفرع، الذي تمت مقابلتنا فيه، ولما كنت لم أعد أذكر رقم هاتف بيتنا، أو رقم هاتف أحد من أقاربي، فلم أستطع الاتصال بأحد. ثم طُلب منا أن نستقل وسيلة النقل التي أقلتنا من سجن عدرا إلى الفرع من أجل توصيلنا إلى منازلنا لمن كان أهله في دمشق، أو لكراجات العباسيين لمن كان أهله في المحافظات الأخرى.

كان الأخ بسام الأشقر من الإخوة الذين تم الإفراج عنهم ضمن الدفعة التي أنا فيها، فاصطحبته معي إلى البيت على أن يبيت تلك الليلة عندنا، ثم يغادرنا صباحاً إلى مدينته حمص. وصلت البيت في حدود الواحدة بعد منتصف الليل، فقرعت الباب ففتح لي فيما أذكره أخي رضوان، ثم تبعه أخي محمد، كانا متفاجئين بوجودي بينهم؛ إذ لم يكونا يتوقعان الإفراج عني وعن والدي. طلبت من أخي محمد أن يُدخل عناصر الأمن إلى داخل غرفة الاستقبال؛ لندفع لهم بعض المال كإكرامية لما أنعم الله به علينا من الفرج، وأذكر أني طلبت من أخي محمد مبلغ ثلاثمائة ليرة سورية، وكانت الليرة السورية في ذلك الحين لها قيمة جيدة، فدفعت المبلغ إليهم، ثم سلمت عليهم، وذهبوا لشأنهم، وذهبت أنا لأسلم على أمي فأخبرني أخَواي أن أمي ليست في البيت، وإنما هي مع جدتي أم ياسين عند خالي أبي فراس.

تم الاتصال بأمي عن طريق الهاتف العادي، فجاءت مسرعة، ووصلت البيت في حدود الساعة الثالثة فجراً، فسلمت عليها، وقبَّلت يدها، وكانت فَرِحة غاية الفرح، ومسرورة أتم السرور. وكان بصحبتها من بيت خالي جدتي أمُّ ياسين -رحمها الله- وخالي أبو فراس، فسلما عليَّ، وباركا لي بمناسبة الخروج من السجن، ومكثنا نتجاذب أطراف الحديث إلى أن حان وقت أذان الفجر، فصلينا الفجر جماعة في البيت، ومكثت قليلاً بعد الفجر، ثم خلدت إلى النوم. ومع شروق شمس اليوم التالي للإفراج عنا اصطحب أخي

محمد، وربما أخي نذير، الأخ بسام الأشقر إلى كراجات العباسيين، وأركبه وسيلة النقل إلى حمص، ومن ذلك اليوم لم أعد أسمع عنه خبراً.

وكانت أختي لبنى تعمل في عيادة طبيب مختص بالمعالجة الفيزيائية اسمه زياد دهنه، كان هذا الطبيب ذا سمعة طيبة في مجال تخصصه، اصطحبتني أختي معها بعد يوم أو يومين من الإفراج عني، والتقيت الطبيب المذكور، فاستقبلني استقبالاً حاراً، وكأني عائد من ساحة المعركة، وقد حققت انتصاراً على الأعداء! وأخذ يسألني عن الفترة التي أمضيتها في السجن، وكانت تبدو عليه علامات الفرح لإطلاق سراحي وأمثالي من السجن. وبعد أن أجبت عن أسئلته التي سألني إياها، رفع سماعة الهاتف، واتصل بطبيب اسمه مأمون الكزبري، وهو طبيب مشهور في مجال طب القلب، وحدَّثه بخصوصي –وكنت والحمد لله لا أشكو من مرض– لكن أراد الطبيب أن يطمئن على سلامة وضعي الصحي، فأرسلني إلى هذا الطبيب، الذي قام بإجراء فحص شامل لي، وأثناء الفحص، وأنا على سرير الفحص، سألني الطبيب: هل كنت تمارس الرياضة سابقاً؟ فقلت له: أجل. وحمدت الله على فائدة ممارسة الرياضة.

ثم إن هذا الطبيب في هذه الفترة، دفع إلي ظرفاً، كان قد وضع فيه مبلغاً من المال، قدره خمسة آلاف ليرة سورية، كهدية بمناسبة خروجي من السجن، واستمرت العلاقة بيننا فترة من الزمن، ثم أخذت الدنيا ومشاغلها كلاً منا في سبيله.

بعد مضي أسبوع على إطلاق سراحي، وتحديداً يوم السبت التالي لليوم الذي خرجت فيه من السجن، كنت في عيادة الطبيب زياد دهنة، وإذا بالهاتف يُقرع، وقد حمل إلينا خبر إطلاق سراح والدي، ففرحت فرحاً شديداً، وشاركني فرحتي الطبيب، ثم رجعت إلى البيت، فوجدت والدي يصلي، وبعد فراغه من الصلاة سلَّمت عليه، وهنأته بالفرج.

السعي في الحياة

كان شغلي الشاغل بعد الخروج من السجن العودة لمتابعة دراستي، وكان ملفي الجامعي قد أُغلق جراء فترة الانقطاع عن التسجيل في الجامعة، فبدأت بمراجعة الجهات المختصة من أجل إعادة فتح ملفي الجامعي، وبدأت العمل في هذا الاتجاه، وكانت أُولى الجهات التي ترددت إليها من أجل إعادة فتح ملفي الجامعي -فيما أذكر- وزارة الداخلية، وقد لقيت عنتاً غير قليل في الاستجابة لطلبي، وكدت أصرف النظر عن الأمر، لولا أن ثبتني الله، وشدَّ من عزمي، وأفرغ عليَّ الصبر إلى حصلت على قرار من وزارة الداخلية يقضي بإعادة فتح ملفي الجامعي ثانية، وهكذا يسر الله لي العودة لاستئناف دراستي الجامعية.

لم يكن وضعي الأُسَري والاجتماعي يسمح بالدوام الكلي في الجامعة، بل كنت أقتصر على حضور المحاضرات المهمة، كمحاضرات الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي -رحمه الله- والأستاذ وهبة الزحيلي -رحمه الله- وغيرهما من الأستاذة الفضلاء.

وبعد أن يسر الله لي أمر متابعة دراستي الجامعية، بدأت البحث عن فرصة عمل لأتابع مسيرتي في الحياة، وكنت قبل دخولي السجن قد أمضيت فترة أربعة أعوام في العمل بمهنة خراطة المعادن مع والدي في مطار دمشق الدولي، إضافة إلى الورشة الخاصة التي أقمناها في حديقة بيتنا، فكنت -بحمد الله- أعرف صنعة أتعيش منها، وأتدبر من خلالها تكاليف الحياة ومطالبها وما أكثرها!

وكنت يوماً في زيارة زوج أختي فوزي الداراني، وعلمت أن أخاه لديه ورشة خراطة، فتم ترتيب الأمر على أن أعمل في ورشة أخيه، وعملت معه فترة شهرين أو ثلاثة، ثم يسر الله لنا دكاناً في مدينة داريا، أعارنا إياها صديق والدي صابر حمشو -وكان من أغنياء دمشق ومن أهل الخير والمعروف- وجعلها تحت تصرفنا من غير مقابل. فنقلنا الورشة من البيت إليها، وتوكلنا على الله، وهكذا شققت طريقي في الحياة جامعاً بين العمل والدراسة، فكنت أعمل نهاري، وأدرس مقرراتي الجامعية في أوقات فراغي.

الزواج

كان شغل والدتي ووالدي الشاغل بعد خروجي من السجن البحث لي عن زوجة، وأذكر أني سمعت والدي –رحمه الله– يقول لوالدتي في يوم من الأيام بعد خروجي من السجن: ابحثي على زوجة لهذا الولد قبل كل شيء!

وبدأت والدتي سباق ماراثوني في البحث عن زوجة لي، وطرقت العديد من الأبواب، ففُتح بعضها أمامنا، واستقبلنا أهلها بالترحيب والتكريم، وأُوصِد بعضها الآخر في وجهنا، بل إن أهل بيت من البيوت التي كنا قد عزمنا التوجه لزيارتها، عندما علم أهلها بما عزمنا عليه، تركوا بيتهم، وولوا هاربين إلى مكان آخر؛ تفادياً للقائنا! نسأل الله السلامة والعون والسداد.

وكانت خالتي أم عبدو (عائشة) راغبة في أن أتزوج ابنتها الصغرى، وأخبرتني والدتي بهذه الرغبة، فلم تلق فكرة الزواج من ابنتها قبولاً لدي، ثم عرضت عليَّ أمي عدداً من الفتيات، فكان بعضهن يرفضن الزواج مني؛ لسابق اعتقالي، والبعض الآخر لم يلق قبولاً مني. ومما أذكره هنا أنني من كثرة ما عُرض عليَّ، ولم يتيسر أمر الزواج بأيٍّ ممن عُرِضْن عليَّ، نُقِل إليَّ أن والدي –رحمه الله– قال لوالدتي: ليتزوج ابنة خالته، ويريحنا من هذا الأمر، ولم أكن راضياً عن هذا الموقف من والدي رحمه الله.

وكنا قد تعرفنا ونحن في السجن على شخص من بيت قطنا، وكان هذا الشخص يُجلُّ والدي كثيراً ويحترمه، وكان قد سبقنا بالخروج من السجن، وبعد أن علم بخروجنا من السجن زارنا في البيت، واستمرت زيارته لوالدي بين الحين والآخر، وكانت قد نشأت علاقة جيدة بين أمي ووالدة هذا الشخص. وكانت لأخ والدة ذلك الشخص بنتان غير متزوجات من عائلة التنوخي، جدهما الأستاذ عز الدين التنوخي الأديب والمحقق ورجل العلم –رحمه الله– فتم ترتيب الأمر لرؤية إحداهما، وكان والد تلك الفتاة يعمل مدرساً لمادة الرياضيات، وقد توفي بمرض عضال –رحمه الله– ثم شاء الله أن يتم هذا الأمر، فكتبنا العقد في المحكمة، وكان زواجي من تلك الفتاة بتاريخ الثامن عشر من سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة وألف، أي بعد عشرة أشهر من تاريخ خروجي من السجن، وقد رزقني الله من تلك الزوجة ثلاثة ذكور وابنتين، ثم شاء الله بعد عشرين عاماً من زواجنا أن نفترق، ويذهب كل منا في سبيله، ولله الأمر من قبلُ ومن بعدُ.

السفر إلى دولة قطر

بعد أن فرج الله عني، ودخلت معترك الحياة، ترسخ لدي قناعة أن العيش في بلدي أمر محفوف بالمخاطر، فالإنسان في هذا البلد محروم من الحرية والأمن، ومُعَرَّض بين الحين والآخر للاعتقال، ومُعَرَّض للسين والجيم، بل أكثر من ذلك مُعَرَّض للاختفاء من هذه الأرض! نسأله تعالى السلامة، فكانت مسألة السفر تفرض نفسها عليَّ بقوة، وكانت لا تفارقني أبداً، وكان من جملة أدعيتي التي أرددها يوميًّا: اللهم هيء لي سفراً إلى إي مكان في العالم غير هذا المكان، وقد استجاب لي دعائي، وحقق لي ما كنت أصبو إليه.

وكان زوج أخت زوجتي الأخ محمد أحمد مظهر –وهو رجل فاضل وشهم– يحمل شهادة جامعية من كلية الاقتصاد بجامعة دمشق، كان قد سافر إلى دولة قطر سنة تسع وتسعين وتسعمائة وألف، وعمل في ديوان المحاسبة فيها. وكان هذا الشخص يَوَدُّني كثيراً، وكان حاضراً يوم ذهبت إلى بيت أمي زوجتي لرؤية الفتاة التي كتب الله لها أن تكون أُمَّ أولادي بعدُ، وقد علمت بعدُ أن هذا الأخ الفاضل كان قد كُلِّفَ بالسؤال عني، عندما تقدمت لخطبة أخت زوجته.

وفي أول زيارة له إلى دمشق الأسد بعد سفره إلى دولة قطر، جمعني وإياه عشاء عائلي في منطقة بلودان[1] الجميلة، وقلت له في ذلك اللقاء إنني راغب في السفر إلى قطر، فإن يسر الله لك أن تمهد لي السبيل إلى ذلك، فأنا لك من الشاكرين، وكنت قد دفعت إليه الوثائق المطلوبة لهذا الأمر. وبالفعل، فإن الرجل –جزاه الله كل خير– بعد عودته إلى دولة قطر، وبعد أشهر قليلة من لقائنا العائلي اتصل بي هاتفيًّا، وأخبرني أنه قد حصل لي على تأشيرة عمل في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر، وطلب مني أن أستعد للسفر من غير تريث كي لا تفوتني فرصة العمل، وفوق ذلك أرسل لي مبلغاً من المال كي أستعين به على متطلبات السفر.

بدأت مباشرة التحضر للسفر، وكان شهر رمضان قد دخل علينا، فودعت أهلي، وغادرت دمشق يوم الخميس العاشر من رمضان سنة إحدى وعشرين وأربعمائة وألف للهجرة، الموافق السابع من شهر كانون الأول/يناير سنة ألفين ميلادية، ووصلت قطر حامداً الله على ما يسره لي، وشاكراً الأخ محمد أحمد مظهر على جهوده وما أسداه لي من معروف لا أنساه له ما دمت حيًّا.

---

[1] عند كتابة هذه المذكرات كانت هذه المنطقة إضافة إلى مناطق: الزبداني، مضايا، بقين، سوق وادي بردى، قد أصبحت تحت سيطرة ميلشيات حزب الشيطان اللبناني، وهُجِّر أهالي هذه المناطق إلى محافظة إدلب شمالي سوريا، فحسبنا الله ونعم الوكيل، ونعم المولى ونعم النصير.

استقبلني الأخ أبو مظهر في مطار الدوحة، واستضافني في بيته إلى نهاية شهر رمضان، وأكرم مثواي، ثم يسر الله لي الإقامة في بيت مخصص لموظفي وزارة الأوقاف الجدد، واصطحبني يوم السبت الثاني عشر من شهر رمضان سنة إحدى وعشرين وأربعمائة وألف للهجرة، الموافق التاسع من شهر كانون الأول/يناير سنة ألفين للميلاد إلى مكتب المدير المالي في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية يومئذ السيد يوسف الكواري، وقد أحالني الكواري إلى شخص قطري كان مسؤولاً عن موقع الشبكة الإسلامية، وهذا بدوره أحالني إلي الشيخ عبد السلام البسيوني الذي رحب بي ترحيباً مناسباً، وعرفني على فريق العمل الذي سأنضم إليه، وكان جُلَّه من الإخوة المصريين، وبدأت العمل منذ ذلك الحين، ثم يسر الله لي بعد أشهر معدودات أن أُحضر زوجتي وأولادي، ويستقر بنا المقام في دولة قطر إلى تاريخ كتابة هذه المذاكرات، وكان قد مضى على دخولي دولة قطر نحو ستة عشر عاماً ونصف العام، وما أدري ماذا فاعل الله به بعد هذا التاريخ.

خاتمة

فهذا ما كان من خبر اعتقالي، منذ تاريخ دخولي السجن سنة ثمانين وتسعمائة وألف ميلادية إلى تاريخ الخروج منه في أواخر سنة إحدى وتسعين وتسعمائة وألف، أتيت في هذه المذكرات على معظم الأحداث والوقائع التي مررت بها خلال فترة اعتقالي، وأعرضت عن ذكر أمور، لم أر كبير فائدة من ذكرها، أخذاً بقول الشاعر:

فكان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

وفي الختام لا بد لي أن أحمد الله كل الحمد، ذلك أنني لم أعاني ما عانه غيري من إخواني في السجون الأسدية الإجرامية، وقد لمست لطف الله بي منذ دخلت السجن إلى أن خرجت منه، فالحمد لله على لطفه وعنايته بي، وحفظه ورعايته لي، وكنت دوماً أستحضر وأنا في السجن قول الشاعر:

وإذا العناية لاحظتك عيونها فنم فالمخاوف كلهن أمان

وعند التدقيق والتمحيص والتأمل في مجريات اعتقالي، ومقارنة بما عانه وقاساه إخوة لي، أخجل من نفسي أن أدون هذه الذكريات؛ لأنني في حقيقة الأمر، وقياساً بما عانه إخوة لي في سجن تدمر، وغيره من سجون عائلة الأسد، وأيضاً ما يعانيه اليوم إخوة لي في سجن صيدنايا[1]، أقول: عندما أقارن ما مررت به من أحداث لا يساوي شيئاً، بل لا يستحق الذكر أمام ما عانه إخوة لي بالأمس، وما يعانيه إخوة لي اليوم في ظل نظام الأسد (الابن) المجرم والمستبد، فأسأله تعالى أن يفرج عن إخوتي في سجون بلاد الشام، وأن يطلق سراحهم عاجلاً غير آجل، والأهم من كل ذلك، أن يخلص هذا الشعب من ظلم هذه العائلة الحاقدة الظالمة، المجرمة الخائنة، آمين.

هذا، ولا زالت المعاناة مستمرة في بلادي بلاد الشام، فحتى تاريخ كتابة هذه المذكرات لا زال الشعب السوري يعاني من طغيان الطائفة الأسدية المجرمة، المدعومة من الغرب الحاقد، ومن أعداء هذه الأمة، الذين يسرهم ما يجري في بلاد الشام اليوم، فهم يدعمون هذا النظام سرًّا وعلانية، ومادِّيًّا ومعنويًّا، وجهرة وخفية، وصباح مساء؛ لأنهم لا يجدون نظاماً أفضل منه، يحقق مصالحهم، ويحفظ مكاسبهم في هذه المنطقة الحساسة من العالم.

وأختم هنا بقوله سبحانه: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ (آل عمران:١٧٣) وقوله جل وعلا: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو

[1] صادفت كتابة هذه المذكرات أحداث المجازر التي ارتكبها النظام الأسدي في سجن صيدنايا؛ حيث كان يعمد إلى حرق الجثث بعد إعدامها بالمواد الكيماوية؛ كي يخفي أثرها، والله من ورائهم محيط.

يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ (الأنفال:٣٠) وقوله عز وجل: ﴿والله من ورائهم محيط﴾ (البروج:٢٠) وقوله تعالى: ﴿ليس لها من دون الله كاشفة﴾ (النجم:٥٨).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وسلام على عباده المرسلين، ولا عدوان إلا على الظالمين[١].

تم الانتهاء من كتابة هذه المذكرات بُعيد ظهر يوم الخميس

العشرون من شهر رمضان المبارك سنة ١٤٣٨هـ

الموافق الخامس عشر من شهر يونيو/حزيران ٢٠١٧م

الـدوحـــــة

[١] لا بأس أن أشير هنا إلى أنه عند مشارفة الانتهاء من كتابة هذه المذكرات، كانت قد بدأت الحملة الإعلامية على دولة قطر، باتهامها بأنها دولة تمول الإرهاب، وتؤوي إرهابيين! وقد تولى كِبْرَ هذه التهمة كلٌّ من: المملكة العربية السعودية، ودولة الإمارات العربية المتحدة، ومملكة البحرين، وجمهورية مصر العربية، وتضامن مع هذه الدول دول أخرى. وصادف الإعلان عن هذه الحملة مع بداية العشر الثاني من شهر رمضان المبارك سنة ١٤٣٨هـ-يونيو/حزيران ٢٠١٧، والله المستعان على ما يصفون.

الفهرس

مقدمة.....

نبذة ذاتية.....

ما قبل السجن.....

فترة التحقيق.....

ما بعد التحقيق.....

في سجن قلعة دمشق.....

فترة التوتر والقلق.....

دخول كلية الشريعة بجامعة دمشق.....

محكمة أمن الدولة.....

انتهاء فترة الحكم.....

العودة ثانية إلى سجن الشيخ حسن.....

الانتقال إلى سجن عدرا.....

الاهتمام بالقراءة وطلب العلم.....

ممارسة الرياضة.....

السجن والجنس.....

الأيام الأخيرة في السجن.....

الخروج من السجن.....

السعي في الحياة طلباً للرزق.....

الزواج.....

السفر إلى دولة قطر.....

الخاتمة.....